مذاهب فى التربية

بحث فى

المذهب التربوى عند ابن خلدون

تأليف

فتحية حسن سليمان

أستاذة التربية وتاريخها
وعميدة كلية البنات
جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر
١٨ شارع كامل صدقى بالفجالة

دار الهنا للطباعة والنشر ـ ت : ٤١١٢٧

مذاهب فى التربية

بحث فى

المذهب التربوى عند ابن خلدون

تأليف

فتحية حسن سليمان

أستاذة التربية وتاريخها

وعميدة كلية البنات

جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر

١٨ شارع كامل صدقى بالفجالة

دار الهنا للطباعة والنشر ـ ت : ٤١١٢٧

مقدمة



سبق أن قدمت في بحثي في المذهب التربوي عند الغـزالي أن الجهود التي بذلت في ميـدان البحث في تاريخ التربيـة في العصور الاسلامية جهود محدودة ، ومعدودة ، وبينت انه بينما يحظى المربون الغربيون في شتى العصور بالكثير من جهـود المؤرخين والباحثين ، فان كتاب العـرب والمسلمين لم يحظوا بالاهتمام الكافي من الباحثين في تاريخ التربية ، بالرغم من أن هناك ذخيرة طيبة من البحوث والدراسات الاسلامية في نواحي اللغة والفلسفة وعلوم الدين .

واعتقد انه قد حان الوقت ـ ونحن في عهد النهضـة العربية المباركة ـ أن ينتحي طلاب العلم والباحثون في شؤون التربية بيننا ناحية شرقية عربية ، حتى نحيي التراث التربوي الاسلامي ، وندرس الآراء التربوية التي جاءت في مؤلفـات الكتاب والفلاسفة والائمة المسلمين والعرب ـ تلك الآراء التي يتضح من دراستها مدى قيمتها ، ومدى اتفاقها مع المذاهب الفلسفية ، والتقاليد الاجتماعية السائدة في العصورالاسلامية والتي تدل على فطنة هؤلاء الكتاب ، وسـعة آفاقهم ، وعمق معرفتهم للطبيعة البشرية ، ولنفسية المتعلمين .

وانه بالرغم من أن الاتجاه العام عند الكتاب المسلمين انما يبين زيادة اهتمامهم بالنواحي الدينية في شؤون التربية ، الا أن هناك ظاهرة عامة أخرى تربط فيما بينهم ، الا وهي اعترافهم

بشؤون الدنيا وبواقع الحياة ، واعداد النشء بحيث يمكنه أن يسعد فى حياته أيضا .

ولقـــد اخترت لبحثى هذه المرة ((ابن خلدون)) الكاتب والمؤرخ الذى عاش فى المغرب فى القرن الرابع عشر وتنقل بين شمال أفريقيا والاندلس ، ورحل شرقا حتى مصر والشـام . ويعتبر ابن خلدون من أعظم الـكتاب العرب ، بـل انه يعتبر مؤسس علم الاجتماع بالاضافة الى كونه فى عـداد المؤرخين المرموقين الذين ظهروا على مر السنين ، ولقد كان له مذهب واضح فى التربية والتعليم ، مذهب مستمد من فلسفته الواقعية ، فلقد اهتم ابن خلدون بدراسة المجتمعات وتطورها من البداوة للتحضر ، واعتبر ((العلم والتعليم)) ظاهرة ضمن الظواهـر الاجتماعية التى تميز المجتمعات المتحضرة .

وينفرد ابن خلدون ــ هكذا ــ بآراء تربوية مستمدة من دراساته ومشاهداته للمجتمعات المختلفة التى عرفهـا وعاش فيها أثناء أسفاره ، وتنقلاته الواسعة النطاق ، ومن دراساته العميقة ، وسعة ثقافته ، ومن الوظائف العديدة التى تقـلدها أثناء حياته الحافلة بالحوادث والمغامرات .

المؤلفة

الباب الأول

تعريف بابن خلدون

حياته : كانت حياة ابن خلدون طويلة حافلة بالأحداث والأسفار والتغيرات ، ولقد شغل عدداً كبيراً من الوظائف والمناصب السياسية والعلمية والقضائية ، ولما كانت حياته هذه تلقى ضوءاً موضحا لفلسفته الاجتماعية التى أثرت على إتجاهه فى التفكير فى شؤون التربية والتعليم ، فإنى قصرت فى هذا البحث جهدى على سرد حياته بصورة مختصرة ، لكنى عمدت أن أبين أنواع الوظائف التى تقلدها ، وأن أصف رحلاته التى قام بها بين المغرب والأندلس ، ثم بين المغرب وبلاد الشرق . وأرجو أن يوضح سرد حياته على النحو الذى أتبعته كيف تكونت شخصية هذا العبقرى الفذ تكويناً جعله من أعظم الكتاب والمؤرخين الذى عرفهم التاريخ .

نشأت أسرة ابن خلدون بمدينة « كارمون » Carmon بالأندلس إذ إستقر بها جده « خالد بن عثمان » الذى إشتهر فيما بعد باسم « خلدون » [1] . ويقال إن هذه الأسرة ترجع إلى أصل يمانى حضرمى ، نزح بعض أفرادها إلى الحجاز فى العصور التى سبقت الإسلام ، ثم دخل بعض أفرادها الأندلس مع العرب الغزاة الفاتحين فيما بعد .

---

(١) يظهر أن أهل الأندلس والمغرب درجوا على أن يضيفوا الواو والنون للأسماء للدلالة على تنظيم أصحابها .

ولم يكن لأسرة ابن خلدون شهرة أو شأن يذكر إلا عندما ضعفت دولة الموحدين ، واضطربت الأمور فى الأندلس ، ووقعت معظم مدنها ومرافئها فى يد ملك « كاستيل » Castile ، فهاجر بنو حفص من أشبيليه ، ورحلوا إلى شمال أفريقيا ، وتبعهم بنو خلدون ، فعطف الحفصيون عليهم ، وولوا أبا بكر محمد — وهو جدّ ابن خلدون الثانى — شؤون دولتهم بتونس ، كما ولّوا جده الأول محمد بن أبى بكر محمد شؤون الحجابة لحاكم « بجاية » (١) . وكان من الحفصيين . وبقى هذا الجد لابن خلدون زمناً طويلا فى بلاط « بجاية » حتى بعد أن زالت دولة بنى حفص ، وحل محلهم الموحدون عام ٧١١ هجرية ، فتقرّب من الأمير « أبى يحيى بن اللحيانى » وتولى حجابته حيناً ثم اعتزل الحياة العامة بعد ذلك على أن هذا الاعتزال لم يفقده مكانته ونفوذه فى الدولة ، فبقى ذا سطوة وبأس إلى أن توفى عام ٧٣٧ هجرية . ١٣٣٧ ميلادية .

أما والد ابن خلدون فقد ترك السياسة التى احترفها أبوه وجده ، وفضل عليها العلم والدراسة ، و « . . . نزع عن طريقة السيف والخدمة إلى طريقة العلم والرّباط . . . فقرأ وتفقه ، وكان مقدماً فى صناعة العربية ، وله بصر بالشعر وفنونه » (٢) . وتوفى والد ابن خلدون حوالى ٧٤٩ هجرية ، ١٣٤٩ ميلادية ، وترك خمسة من الأبناء كان أكبرهم عبد الرحمن (ابن خلدون صاحب المقدمة) ، وكان فى الثامنة عشرة من عمره . ولم يكن أبو عبد الرحمن ابن خلدون قد سلك سلوكا شاذاً عن تقاليد الأسرة باتجاهه نحو العلم والدرس ، فقد نبغ عدد من أفرادها فى الأندلس فى العلوم المختلفة ومنهم

(١) مدينة « بجاية » هذه مدينة بالجزائر كانت قاعدة المغرب الأوسط .

(٢) التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ١٤

عمر بن خلدون (١) الذى نبغ فى علوم الرياضة والفلك والطب . وإذن فقد إشتهر بنو خلدون بنبوغهم فى السياسة والعلم معاً ، وقد وصفهم المؤرخ ابن حيان (٢) بقوله « بيت بنى خلدون إلى الآن فى أشبيليه نهاية فى النباهة . ولم تزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية » (٣) .

ولد ابن خلدون بتونس عام ٧٣٢ هجرية ، ١٣٣٢ ميلادية وكان أبوه معلمه الأول ، وكانت تونس مركزاً للعلماء والأدباء فى المغرب ، كما احتشد فيها علماء الأندلس الذين شردتهم الأحداث ، فدرس ابن خلدون عليهم العلوم الشرعية ، كما درس عليهم العلوم اللسانية ونبغ فى الشعر والفلسفة والمنطق مكتسباً بذلك إعجاب أساتذته . ويذكر ابن خلدون أساتذته فى مؤلفاته بالشكر والإعجاب والثناء وعلى الأخص محمد بن عبد المهيمن بن عبد المهيمن الحضرمى (٤) الذى درس عليه الفقه والحديث والسيرة وعلوم اللغة ، وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلى (٥) الذى درس عليه « الأصلين والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية » (٦) .

وقد اكتسح وباء الطاعون عام ٧٤٩ هجرية معظم بلدان العالم من الشرق للغرب ، وفقد ابن خلدون أبويه أثناء إنتشار هذا الوباء وكان حينئذ فى الثامنة عشرة من عمره . وقد تسبب إنتشار الوباء المذكور فى أن هاجر معظم العلماء والأدباء الذين نجوا منه من تونس إلى المغرب الأقصى ، ولهذا تعذر على ابن

---

(١) توفى عمر بن خلدون قبل ابن خلدون صاحب المقدمة بحوالى ثلاثة قرون .
(٢) من رجال القرن الحادى عشر الميلادى والخامس الهجرى .
(٣) كما جاء فى كتاب التعريف بابن خلدون ص ٥
(٤) إمام المحدثين والنحاة فى ذلك العصر .
(٥) نسبة إلى آبلة Avila وهى مدينة بمقاطعة مدريد بالأندلس .
(٦) التعريف بابن خلدون ص ١٥ ـ ٢٢

خلدون متابعة الدرس الذى كان يرغب فى متابعته كما فعل أبوه من قبله ، ولذا تغير مجرى حياته ، فبعد أن كان ينوى التفرغ للعلم والتعليم ، والدراسة على أعظم العلماء والأدباء فى عصره ، أخذ يتطلع إلى الوظائف العامة فى الدولة ليتقلد واحدة منها .

وفى عام ٧٥١ هجرية ، ١٣٥٠ ميلادية عين ابن خلدون فى وظيفة « كتابة العلامة » وهى وظيفة كتابية فى بلاط « أبى اسحق بن أبى يحيى »(١) ، الأمير الصغير الذى ولاه الوزير «محمد بن تافراكين » بدلا من أخيه الفضل ، ووضعه تحت كفالته واستبد به ماشاء .

وحدث أن استولى أمير قسنطينة أبوزيد حفيد السلطان أبى يحيى الحفصى على تونس عام ٧٥٣ هجرية وانتزعها من قبضة ابن تافراكين لذلك فر ابن خلدون هاربا من معسكر تافراكين المهزوم كى ينجو بنفسه ، وطاف فى البلاد حتى استقر فى « بسكرة »(٢) فترة من الوقت . وقد عينه بعد ذلك السلطان أبو عنان (ملك المغرب الأقصى حينئذ) عضوا فى مجلسه العلمى « بفاس » ، وكان ذلك حوالى ٧٥٥ هجرية ، ثم عينه السلطان بعد ذلك ضمن كتابه وموقعيه .

وأثناء إقامته فى « فاس » عاود ابن خلدون الدرس على العلماء والأدباء الذين كانوا قد نزحوا إلى المغرب الأقصى بعد انتشار وباء الطاعون ، وأخذ يمعن فى القراءة حتى اتسعت دائرة معلوماته . وعاوده التفكير فى ترك وظائف الدولة ، والبعد عن السياسة ، والتفرغ للعلم . غير أن طموحه لتقلد المناصب

---

(١) كان أخا للفضل بن السلطان أبي يحى الحفصى الذى استولى على تونس عام ٧٥٠ هجرية بعد أن انتزعها من يد بنى مرين .

(٢) بسكرة بلد فى الجزائر بالمغرب الأوسط.

الكبيرة فى الدولة جعله يستمر فى عمله كسياسى بدلا من أن يتفرغ للدرس والعلم .

وكان ابن خلدون — كسياسى — يتصف بالانتهازية . فقد كان يتحين الفرص ، ويدبر السبل للوصول إلى المناصب التى يتطلع إلى تقلدها ، بغض النظر عن تلك السبل هل هى نزيهة شريفة ، أو ملتوية مريبة . ولم يتورع ابن خلدون عن الإساءة إلى من أحسن إليه فى سبيل وصوله إلى بغيته . وهكذا نجد ابن خلدون يتآمر على أبى عنان — الذى أكرمه وأحسن معاملته — وذلك بتدبير خطة مع الأمير أبى عبد الله محمد الحفصى[1] لتحريره من الأسر ، وإعادة ولايته إليه فى نظير أن يولى «ابن خلدون» شؤون حجابته . ولم يقدر النجاح لابن خلدون فى مؤامرته هذه فقد كشفها أبو عنان وزج بابن خلدون فى السجن عام ٧٥٨ هجرية ، وبقى ابن خلدون سجينا زهاء عامين .

ولم يطلق سراح ابن خلدون حتى مات أبو عنان وتغيرت شؤون الولاية واغتصب الوزير «أبو الحسن بن عمر» العرش من آل عنان ورد ابن خلدون إلى وظيفته السابقة .

وهكذا أخذ ابن خلدون يتزلف إلى الولاة واحدا بعد الآخر ليرتقى إلى وظيفة أعلى ، ثم يدبر المكيدة تلو الأخرى لمن تملقهم وأكرموه ؛ وقد تقلد أثناء هذه الأحداث وظائف عدة بين حجابة وقضاء ، كما كتب الشعر ، وأنشد القصائد فى مدح الملوك والحكام للوصول إلى غاياته ، وبقى بالمغرب حتى هاجر منها إلى الأندلس عام ٧٦٤ هجرية وكان قد تروج أثناء الفترة التى

---

(١) كان أمير «بجاية» وخلع من الإمارة ثم أسر بفاس . وتعتبر أسرة بنى حفص — التى ينتمى إليها الأمير — صاحبة الفضل على أسرة ابن خلدون

قضاها بالمغرب ، إلا أن تاريخ زواجه غير محدد بالضبط ، ويمكن أن يكون قد تزوج أثناء وجوده فى « بسكره » بالجزائر حوالى عام ٧٥٤ هجريه .

وقد اختار ابن خلدون « غرناطه » من بين مدن الأندلس ، ونزل بها ، وذلك لصداقته لسلطان « غرناطه » فى ذلك الوقت (١) ولوزيره المعروف بابن الخطيب (٢) ، وعينه السلطان بعد ذلك سفيرا بينه وبين ملك « كاستيل » (٣) فسافر ابن خلدون إلى أشبيلية ونجح فى سفارته ، فأكرمه السلطان ، وخصه بالرعاية ، فثار لذلك الوزير ابن الخطيب وشعر ابن خلدون بغضبه وطلب لذلك الإذن فى الرحيل عن الأندلس ، فرحل منها إلى « بجايه » عام ٧٦٦ هجرية ، أى بعد أن أمضى عامين فى الأندلس .

وفى « بجايه » عينه الأمير حاجبا له ، وكانت وظيفة حاجب الأمير أكبر منصب فى الدولة ، ويصف ابن خلدون نشاطه فى هذه الفترة من الزمن فى « التعريف » فيقول « . . . وقد أمر السلطان أهل الدولة بمبا كرة بابى ، واستقللت بحمل ملكه ، واستغرقت جهدى فى سياسة أموره وتدبير سلطانه ، وقدمنى للخطابة بجامع القصبة ، وأنا مع ذلك عاكف — بعد إنصرافى من تدبير الملك غدوة — إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبة لا أنفك عن ذلك » (٤) فجمع ابن خلدون إذن بين ممارسة السياسة والعلم فى وقت واحد .

---

(١) كان سلطان غرناطه فى ذلك الوقت هو محمد بن إسماعيل بن الأحمر النصرى (ثالث ملوك بنى الأحمر) .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن سعيد ، من أعظم شعراء الأندلس وكتابها فى القرن الثامن الهجرى ، وله مولفات كثيره منها « الإحاطة فى أخبار غرناطة » وغيرها

(٣) كان ملك كاستيل فى ذلك الوقت هو الملك بطرس الشهير بالقاسى الذى تولى الملك حوالى ١٣٥٠ م وعرف بقسوته وبطشه .

(٤) التعريف بابن خلدون ص ٩٨

على أن هذا الحال لم يدم طويلا ، وعاد ابن خلدون إلى مسرح الدسائس والمؤامرات بين الخصوم من السلاطين والأمراء (١) فى الجزائر والمغرب الأوسط ، وانتهى به الأمر إلى الفرار والانقطاع للدرس فى أحد الربط . فيقول « . . . فعمدت إلى رباط الشيخ أبى مدين ، ونزلت بجواره مؤثراً للتخلى ، والانقطاع للعلم لو تركت له » (٢) .

على أنه لم يقدر له أن يترك للعلم كما أراد ، بل أعادته الظروف مرة أخرى لخوض غمار المؤامرات السياسية ، تلك المؤامرات التى أنتهت به إلى أن أصبح موضع الشك والريبة من أمراء وقصور المغرب بأسره فترك ابن خلدون مدينة « فاس » وسافر مرة أخرى إلى الأندلس عام ٧٧٦ هـ ، لكنه لم يستقر فيها ، فقد أبعده « ابن الأحمر » سلطان غرناطة عن الأندلس — بناء على طلب بلاط فاس — فعاد ثانية إلى المغرب ، وذهب إلى «تلمسان» بعد أن عفا عنه أبو حمو .

ولما طلب أبو حمو من ابن خلدون أن يشترك معه مرة ثانية فى شؤون السياسة تظاهر ابن خلدون بقبول هذا الطلب ، لكنه فضل ألا ينغمس فى السياسة مرة أخرى ، فذهب « إلى قلعة ابن سلامة » بالقرب من تلمسان حيث أقام هو وعائلته هناك حوالى أربعة أعوام، فعاش منعزلا عن السياسة وتفرغ للدراسة والقراءة والتأليف، فكتب مؤلفه الإجتماعى التاريخى المعروف .

وكان ابن خلدون قد بلغ سن الخامسة والأربعين ، وقد تجمعت لديه

---

(١) كان النضال دائراً بين أبي العباس أحمد حاكم « بجاية » والذى اغتصبها من أميرها الأسبق أبى عبد الله . وبين أبي حمو — وهو من بنى الواد — وكان سلطانا لتلمسان ، وقد والى ابن خلدون أباحمو ثم عاد فانقلب عليه ، وهكذا .

(٢) التعريف بابن خلدون ص ١٣٤

ثروة طائلة من العلوم والمعرفة بنواحيها المختلفة وذلك نتيجة لخبراته الواسعة المتعددة فى ميدان السياسة، ونتيجة لخدمته فى معية الملوك والأمراء، ولكثرة أسفاره وتنقلاته بين الدول المغربية والأندلس، ثم لقراءته ودراسته فى كل فرصة كانت تسنح له. وكان ابن خلدون ـ بالإضافة إلى هذا ـ معروفا بسداد الرأى، وعمق التفكير، ودقة الملاحظة وسرعتها، والقدرة على الحكم واستخلاص القوانين. ولكن بالرغم من كل هذه المزايا والمواهب فإنه مما يدعو إلى الدهشة أن ابن خلدون كتب « مقدمته » فى مدة قصيرة جدا هى خمسة شهور تقريبا (١) شرع بعدها فى إنهاء بقية مؤلفه الذى شمل كتابة تاريخ الأمم المهمة فى عصره؛ فقدم لهذا المؤلف ببحث عام فى قوانين المجتمع البشرى وظروفه، وقد اشتهر هذا البحث باسم « مقدمة ابن خلدون » وهو يشمل مقدمة المؤلف والجزء الأول منه، وتبع المقدمة بالكتاب الثانى من المؤلف ويتضمن تاريخ العرب ومن عاصرهم من مشاهير الدول كالفرس وبنى إسرائيل وغيرهم منذ بدء الخليقة إلى القرن الثامن. ثم الكتاب الثالث ويشمل تاريخ البربر « ومن إليهم من زناته وذكر » (٢). وينتهى هذا القسم بترجمة المؤلف لنفسه التى تشمل وحدها كتابا مستقلا هو « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » (٣).

وبالرغم من أن ابن خلدون كان يعتمد كثيرا على ذاكرته القوية، ومعارفه الوفيرة، إلا أنه وجد نفسه فى حاجة إلى الرجوع إلى الكتب والمراجع الضرورية

---

(١) يذكر هو نفسه هذه المدة فى آخر المقدمة. يقول « أتممت هذا الجزء الأول بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب فى مدة خمسة أشهر آخرها عام تسعة وتسعين وسبعمائة . . »

(٢) المقدمة ص ٤، ٥.

(٣) هذا هو الاسم الذى أطلقه ابن خلدون على ذلك الجزء من مؤلفه الذى يقص فيه تاريخ حياته، ورحلاته شرقا وغربا.

للاستعانة بها فى كتابة كتبه التاريخية هذه ، لذلك أرسل إلى السلطان أبى العباس الذى كان سلطان تونس فى ذلك الوقت — ليستغفره عما بدا منه (أى من ابن خلدون) فيما مضى مما أثار غضب السلطان عليه ، فقبل السلطان عذره وغفر له ، وهكذا عاد ابن خلدون إلى تونس لأول مرة بعد أن هاجر منها وهو فى مقتبل الصبا ، وبعث فى طلب أسرته ، فقدمت إليه ، وبدأ عهدا من العيش فى هدوء واستقرار .

وقد بقى ابن خلدون فى تونس يمارس مهنة التعليم من ناحية ، وينقح ويهذب مؤلفه من ناحية أخرى ، لكنه لم يستكمل هذا المؤلف (كما هو على صورته المعروفة الآن)[1] إلا بعد أن رحل إلى مصر واحتك بأهل المشرق . فأضاف إليه أبوابا جديدة وسماه « كتاب العبر . وديوان المبتدأ أو الخبر . فى أيام العرب والعجم والبربر . ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » .

ولما كان ابن خلدون قد مل حياة المغامرة ، والمؤامرات السياسية ، كما أنه كان قد عقد العزم على التفرغ للدرس ، فإنه خشى أن يزج به السلطان أبو العباس فى مغامرات سياسية أو حربية جديدة ، على ذلك عنت له فكرة تأدية فريضة الحج ، فتوسل إلى السلطان أبى العباس أن يأذن له فى السفر فأذن له ، وهكذا سافر ابن خلدون إلى المشرق عام ٧٨٤ هجرية ، ١٣٨٢ ميلادية ، فودعه أصدقاؤه ومريديه أحر وداع ، وكأنهم كانوا قد شعروا بأن ابن خلدون إنما يرحل عن بلاده بلا رجعة .

---

(١) كانت هناك نسخة لهذا المؤلف غير كاملة أتمها حوالى عام ٨٧٤ هجرية وتعرف بالنسخة التونسية وكان ابن خلدون قد أهداها إلى السلطان أبي العباس (عن إبن خلدون منشىء علم الاجتماع للدكتور على عبد الواحد وافى ص ٥٢)

ووصل ابن خلدون إلى مصر وبقى فيها ، لكنه لم يؤد فريضة الحج التى كان مزمعا أن يؤديها ، وربما كان قد تذرع بفكرة الحج لكى يأذن له السلطان أبو العباس بمغادرة تونس ليفر من متاعب الاضطربات السياسية بالمغرب ؛ ولما وصل ابن خلدون إلى الاسكندرية مكث بها بعض الوقت ، ثم قصد إلى القاهرة التى كانت مركز الثقافة الإسلامية فى العالم العربى ، لما كان لحكامها فى ذلك الوقت من أثر كبير فى تشجيع العلوم والفنون ، ولما أنتشر فيها من معاهد للعلم كان أحدها أعظم معهد إسلامى ، هو الجامع الأزهر الذى أنشأه الفاطميون من قبل .

وقبل المجتمع المصرى ابن خلدون بكل ترحاب ، وذلك لما كان له من شهرة كعالم وباحث وكاتب ، ولما أمتازت به شخصيته من قوة ، ولما كان له من طلاقة فى الكلام ، ودقة فى التفكير ، وبراعة فى التعبير ، ووجد ابن خلدون فى الجامع الأزهر مجالا لنشر أفكاره ، فالتف حوله الطلاب والمريدون فى حماسة شديدة .ومن الذين درسوا عليه أو استمعوا لمحاضراته المؤرخ «تقى الدين المقريزى» الذى يقول عن ابن خلدون فى كتابه «السلوك» «وفى هذا الشهر(١) قدم شيخنا أبو زيد عبدالرحمن بن خلدون من بلاد المغرب واتصل بالأمير الطنبغا الجوبانى ، وتصدى للاشتغال بالجامع الأزهر ، فأقبل الناس عليه وأعجبوا به » (٢)

وقد حاول ابن خلدون التقرب من ملك مصر فى ذلك الوقت ٣)فاحسن

---

(١) يعنى شهر رمضان .

(٢) عن التعريف بابن خلدون ص ٢٤٨ تعليق ٣

(٣) كان ملك مصر فى ذلك الوقت هو السلطان الظاهر برقوق الذى تولى الملك عام ٧٨٤ هجرية

الملك معاملته ، وعينه مدرسا للفقه المالكي بمدرسة القمحية(١)، فقام بالتدريس فيها خير قيام بما أكسبه احترام الجميع وتقديرهم لعلومه ومواهبه . وحدث أن غضب الملك الظاهر برقوق على قاضي قضاة المالكية في ذلك الوقت فنحاه عن وظيفته ،وعين ابن خلدون خلفا له عام ٧٨٦ هجرية ، فبادر ابن خلدون إلى إقامة العدالة الشرعية بحزم وصرامة ، بعد أن كانت عرضة للأغراض والمحسوبيات قبل قدومه .

على أن شدة ابن خلدون في شؤون القضاء أثارت حوله الأحقاد ، وخصوصا أن منصبه وهو قاضي القضاة في مصر كان من أعظم مناصب الدولة ، وقد حسده المصريون عليه إذ اعتقدوا أنهم أولى به من ابن خلدون المغربي الأصل والموطن ، فاتهمه البعض بجهل الأحكام وأصول القضاء ، وكثر اللغط حوله ، فشعر بالضيق والكآبة ، وزاد ضيقه لغرق عائلته بأكملها — زوجته وأولاده — بالاسكندرية (٢) ، لذلك أبدى رغبته في ترك منصب القضاء ، وأعفي منه بعد سنة واحدة من توليته ، فسر لذلك الإعفاء ، وعاد لمزاولة التدريس والقراءة والتأليف ، وظل هكذا حتى أدى فريضة الحج عام ٧٩٠ هجرية .

ولما عاد من الحج عينه الملك في منصب كرسي الحديث بمدرسة «صرغتمش» التي كانت تقع بجوار جامع ابن طولون ، وكان قد بناها الأمير «سيف الدين

---

(١) هي مدرسة أنشأها صلاح الدين الأيوبي،ووقفها على المالكية وكان الغرض من إنشائها تدريس الفقه على المذهب المالكي ، ووقفت على هذه المدرسة أراض كان يزرع بها القمح ولذا سميت بالقمحية (عن التعريف بابن خلدون ص ٢٧٩) .

(٢) غرقت الباخرة التي أقلتهم من المغرب إلى مصر في ميناء الاسكندرية في عاصفة هبت عليهم عند المرسى (عن فلسفة إبن خلدون الاجتماعية للدكتور طه حسين ص ١٨ ، ١٩)

ضرغتمش الناصرى ، قبل ذلك بحوالى نصف قرن ؛ وبدأ ابن خلدون أول حديث له بتلك المدرسة بمدح الملك الظاهر برقوق مما أدى إلى الرضاء عنه ، فعين بعد ذلك شيخا لخانكاه « بيبرس » التى كانت أعظم خوانك الصوفية فى ذلك العهد لكنه لم يستمر فى هذا العمل إلا حوالى عام واحد ثم أعفى منه ، ذلك لكثرة الوشايات والشائعات التى قامت حوله .

وبعد حوالى أربعة عشر عاماً من تركه منصب قاضى القضاة المالكية عين فيه مرة أخرى ، ومات الملك برقوق بعد إعادة تعيينه ، فلما خلفه إبنه الناصر إحتفظ لابن خلدون بمنصبه ، لكن ابن خلدون رغب فى السفر إلى بيت المقدس ، فاستأذن الملك الناصر فى السفر ، فأذن له ، ولم يعد ابن خلدون إلى مصر إلا فى أواخر عام ٨٠٢ هجرية ، لكنه أعفى من منصب قاضى القضاة مرة أخرى .

ولما أغار « تيمور لنك » على الشام فى أوائل عام ٨٠٣ هجرية ، ١٤٠٠ ميلادية وكانت الشام تابعة لمماليك مصر ، جمع الملك الناصر جيوشه ، وذهب إلى الشام للدفاع عن دمشق ، فذهب ابن خلدون معه ضمن من ذهب من القضاة والفقهاء . ولما قامت المعارك بين المصريين والتتر قاوم المصريون مقاومة شديدة ، وصمدوا للعدوان ، لذلك أخذ الفريقان فى التفاوض للصلح ؛ وفى أثناء هذه المفاوضات تآمر بعض الأمراء على خلع السلطان الناصر ، وفروا من معسكره إلى مصر ، فعرف السلطان المؤامرة ولحق بهم ، وبقى ابن خلدون بدمشق .

وقد حاول ابن خلدون الاتصال بتيمور لنك للتقرب منه ، وربما كان قد عاوده الحنين إلى تملق الحاكم المنتظر — كما كان قد فعل مراراً فيما مضى — وكان أمله — بطبيعة الحال — الوصول إلى المراتب السامية فى بلاطه ؛ فتدلى

ابن خلدون من سور المدينة التي كان يرابط تيمور وجيشه خارجها ، وأوصله الحراس ورجال الحاشية إلى خيمة الفاتح التترى حيث سلم فى خشوع ، وأبدى إستعداده للإذعان والخضوع ، ودار الحديث بين ابن خلدون وتيمور لنك بوساطة المترجم .

وقد أثارت شهرة ابن خلدون الملك تيمور ، كما أعجب بعلمه الواسع فى التاريخ والجغرافيا ، وبلباقة خاطره وسرعتها فى الحديث ، فطلب الملك من ابن خلدون أن يكتب له وصفاً جغرافيًا لبلاد المغرب ، ففعل ابن خلدون ذلك ، وظل ضيفاً على الملك زهاء شهر تقريباً . وقدم ابن خلدون لتيمور بضعة هدايا ، ولما لم يظفر بما كان يطمع فيه من رتب عالية فى بلاطه غادر دمشق فى أول فرصة عنت له ، وعاد إلى القاهرة .

ولما عاد ابن خلدون إلى مصر حاول الرجوع إلى منصب قاضى القضاة مرة أخرى ، فعينه السلطان فيه ، لكن المعركة بقيت قائمة بينه وبين خصومه على هذا المنصب ، فخلع منه وعين فيه وهكذا حتى عين فيه للمرة السادسة ، على أنه لم يكد يعين فيه تلك المرة حتى توفى عام ٨٠٨ هجرية و١٤٠٦ ميلادية ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر بالقاهرة ، وهكذا إنتهت حياة الطموح الوثابة ، الجريئة المغامرة ، وخلف وراءه من ثروته الفكرية ما يشهد له بالنبوغ والعبقرية والقدرة على التجديد والابتكار .

الباب الثانى

فلسفته الاجتماعية وأثرها على آرائه فى العلم والتعليم عامة

وإنما أتناول هذه الفلسفة الاجتماعية هنا ، لما أرى لها من صلة وثيقة بآرائه فى التربية ، ومن ثم أود أن أنبه — بادىء ذى بدء — إلى أننى لن أعرض لفلسفة ابن خلدون الاجتماعية إلا من حيث هى معينة على فهم مذهبه التربوى ، وملقية ضوءا يكشف عن المؤثرات التى وجهت آراءه فى العلم والتعلم

والذى لاشك فيه أن عبقرية ابن خلدون كمؤرخ مبتكر إنما ترجع إلى ما وهب من ذكاء فطرى خارق ، وقدرة على الملاحظة وربط الأسباب بالمسببات ، كما ترجع إلى ما مر به من تجارب فى حياته السياسية الحافلة بالإضطرابات والإنقلابات ، ثم إلى أسفاره المتعددة ، التى نقلته غرباً وشرقاً بين أوروبا وآسيا ، وعبر شمال أفريقيا تحت ظروف متباينه ، ثم إلى ما حصله من علم وافر عن طريق القراءة والدرس من ناحية ، وعن طريق الملاحظة الدقيقة النقادة التى أفادته فى أسفاره واختلاطه بالشعوب والأجناس المختلفة من ناحية أخرى .

وبالإضافة إلى ماذكر ، فإن تقدم العلوم فى مصر وانتشارها فى عصر ابن خلدون لابد أن يكون قد أفاد ابن خلدون بطريق مباشر أثناء رحلته إلى مصر ، أو بطريق غير مباشر[1] قبل زيارته لها . فقد ظهر النويرى

---

(١) يقول الدكتور طه حسين فى كتابه « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » ص ٥٧ إنه من المحقق أن العلاقات المستمرة التى كانت بين مصر وشمال أفريقيا وبين مصر والأندلس مكنت ابن خلدون من الوقوف على النهضة العقلية بمصر .

(المتوفى عام ١٣٣٢ ميلادية) الذى وضع مؤلفاً ضخما فى أنواع المعارف المختلفة التى عرفت فى عصره من تاريخ وعلوم وأدب وجغرافيا وغيرها . ووضع العمرى (المتوفى عام ١٣٤٨ ميلادية) مؤلفا ضخما فى الجغرافيا ، كما وضع القلقشندى مؤلفا عن الأنظمة المختلفة فى شعوب العالم الإسلامى .

ولقد ظهر أثر كل تلك العوامل التى ساعدت على تفوق ابن خلدون الفكرى إلى إنفراده بطريقته المبتكرة فى كتابة مؤلفه الاجتماعى التاريخى المعروف « بمقدمة ابن خلدون » والكتابين الثانى والثالث المكملين للمقدمة . فقد مزج فى هذا المؤلف بين العلم النظرى ، والفلسفات المختلفة والحقائق العملية الواقعية التى لاحظها ودرسها دراسة شخصية ومباشرة . وهكذا خرج ابن خلدون للعالم بفلسفة جديدة موضوعها « المجتمع وتاريخه » .

وإنى فى هذا البحث سوف أجعل إهتمامى محصوراً فى دراسة « مقدمة ابن خلدون » التى شملت جل ما كتبه عن العلم والتعليم وتربية الصغار .

وللمقدمة ابن خلدون نسخ مختلفة يحتوى بعضها فصولا لا يحتويها البعض الآخر ، فهناك نسخة منقحة أرسلها ابن خلدون إلى السلطان أبى العباس فى تونس — كما ورد ذكر ذلك فى الكتاب الأول — هذا بالإضافة إلى نسخة أخرى سابقة تعرف بنسخة «فاس» على أن النسخة الأخيرة للمقدمة والمعروفة الآن هى — بلاشك — تلك التى أهداها إلى السلطان برقوق عند قدومه إلى مصر وإقامته فيها . (١)

وتعتبر المقدمة الجزء الفلسفى الاجتماعى لمؤلف ابن خلدون ، وهو يعالج فيها مايسمى الآن « بالظواهر الاجتماعية » وما أسماه هو « بأحوال الاجتماع

---

(١) فلسفة إبن خلدون الاجتماعية للدكتور طه حسين ص ٣٨ .

الإنســـانى » أو « بواقعات العمران البشرى» . وفيها يبين أن « الظواهر الاجتماعية » خاضعة لقوانين ثابتة . ومن الطريقة التى يكتب بها ابن خلدون عن هذه الظواهر يتضح أنه كان على علم باتساع نطاقها فنجده يتكلم فى البابين الأول والرابع(١) عن الظواهر التى لها صلة بطريقة التجمع البشرى مبيناأثر العوامل والبيئات الجغرافية فى هـذه الظواهر . وتكلم ابن خلدون فى البابين الثانى والثالث عن الظواهر المميزة للمجتمعات البدوية والحضرية ، كما كتب فى الباب الثانى أيضا عن نظم الحـكم وشؤون السياسة فى المجتمعات وتكلم فى الثالث والرابع والخامس عن الظواهر الاقتصادية ؛ أما الباب السادس فقد خصصه للـكلام عن الظواهر التربوية ، والعلم ، والتعليم ووسائله .

وتعتبر المقدمة تمهيدا لـكتـابة ابن خلدون فى تاريخ الدول والأمم المختلفة ، ذلك لأن ابن خلدون لم ينظر إلى التاريخ على أنه مجرد سرد للحقائق وتدعيم لها بالأدلة والبراهين التاريخية فقط ، بل هو لديه كذلك ربط بين الماضى والحاضر ، ربط مبنى على تشابه المجتمعات بعضها لبعض . يقول ابن خلدون إن « . . الماضى أشبه بالآتى من الماء بالماء »٢ كما يقول « فإذا الأخبار لم يقس الغائب منها بالشـاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق »(٣) ذلك لأن المجتمعات البشرية يربطها رباط واحد أينما حلت ، ووقتما كانت ، وذلك الرباط هو العامل المشترك بينها وهو وحدة العقل البشرى ، كما أن ظاهرة التقليد تكون سببا آخر فى تشابه المجتمعات ، فالشعب يقلد الحاكم ، والمغلوب يقلد الغالب وهكذا .

على أن المجتمعات يخالف بعضها البعض أيضا . فهناك صفات تميز كل

---

(١) لقد استعملت فى هذا البحث نسخة المقدمة التى نشرتها مطبعة عبد الرحمن محمد صاحب المطبعة البهية المصرية بميدان الأزهر . بالقاهره

٢ ، (٣) المقدمة ص ٨ ، ٧

مجتمع منها ويختص بها دون سواه ، ويرجع ابن خلدون هذه الاختلافات إلى الظروف التى تحيط بكل مجتمع منها فتفرغ عليه لونا خاصا من المميزات . أما هذه الظروف أو العوامل فهى جغرافية وطبيعية وسياسية واقتصادية ؛ على أن ابن خلدون يعتبر هذا التباين بين المجتمعات إنما هو تباين عرضى ، دون الجوهر . ويضرب ابن خلدون أمثلة مختلفة لبيان أثر هذه العوامل فى مميزات المجتمع فيقول مثلا — شارحا أثر المناخ فى شعوب الأقاليم التى ليست بالحارة ولا بالباردة — إن الجو المعتدل يجعل « . . . البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا ، حتى النبوات فإنما توجد فى الأكثر فيها ولم نقف على خبر بعثة فى الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية » (١) . كما يصف أثر الطبيعة الجغرافية للبلاد على صفات ساكنيها فيقول « . . . لذلك نجد جسوم أهل الأمصار ألطف من جسوم البادية المخشنين فى العيش ، وكذلك نجد المعودين الجوع من أهل البادية لافضلات فى جسومهم » (٢) ، كما يقول فى موضع آخر « .. فإنا نجد أهل الأقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها غالبا بالبلادة فى أذهانهم والخشونة فى أجسامهم ، وهذا شأن البربر المنغمسين فى الأدم والحنطة مع المتقشفين فى عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة . . . . فتجد هؤلاء أحسن حالا فى عقولهم وجسومهم . » ٣

وبعد أن يسهب ابن خلدون فى تبيان أثر العوامل الجغرافية والبيئة المختلفة على صفات الشعوب والمجتمعات يبدأ فى شرح الظواهر الاجتماعية المختلفة ، ومن هذا الشرح يمكن معرفة المذهب الفلسفى لابن خلدون .

---

(١) المقدمة ص ٥٨ — ٥٩

(٢) ، (٣) المقدمة ص ٦٢ ، ٦٣

يقول ابن خلدون إن أى مجتمع متحضر لابد أن يمر خلال ثلاثة أطوار متوالية أثناء تحضره . فالطور الأول هو طور البداوة — سواء أكان ذلك فى الصحارى كالعرب ، أم فى السهول كقبائل التتار . وفى هذا الطور تتحكم فى المجتمع عاداته وحاجاته ، ولا يحكمه القانون . أما الطور الثانى فيصل إليه المجتمع عن طريق الغزوات والفتوح ، فتتكون بالتدريج دولة ذات قوانين ولوائح . ونظم تتحكم فيها . ويصل المجتمع إلى الطور الثالث عندما يستقر بعد تكوينه المنظم ، فتنتشر فيه روح الترف ، وينكب أفراده على الدراسة ، ويتوسعون فى العلوم والفنون ، ويبحثون عن الوسائل الكفيلة بالاستمتاع بالحياة ، وهكذا يبدأ المجتمع فى الضعف والاضمحلال .

على أن هذا الطور الثالث الذى ينتهى بانهيار كل مجتمع بدوره لا يعنى أن المجتمع سوف يقف عند هذا الحد ، أو أنه سوف ينتهى نشاطه ، بل إنه يبدأ فى التطور من جديد ، مع بقاء رواسب من حضارته السابقة لا تزول بانهياره . فيمر المجتمع مرة أخرى فى الأطوار المذكورة محتفظا مع ذلك ببعض بقايا حضارته التى تساعده فى النشوء والارتقاء من جديد . فتاريخ المجتمعات إنما هو حركة دائمة متموجة ، بها ارتفاعات وانخفاضات ، وقمم ووهاد ، وتقاس حضارة المجتمع بالدرجة التى يصل إليها ذلك المجتمع من تقدم فى مظاهر « العمران » أو — بمعنى آخر — مظاهر الحضارة فى نواحى الحياة المتعددة من علوم وصناعات وثقافة وفنون واقتصاد .

ولم يميز ابن خلدون المجتمع بمميزات خاصة تفرقة عن مميزات الفرد . فالمجتمع لدى ابن خلدون مجموعة من الأفراد ، وفكر المجتمع هو مجموعة أفكار أفراده ، والطريقة التى يشرح بها تطور المجتمع تشبه تلك التى يصف بها نمو الفرد ؛ فالمجتمع كالإنسان يولد ثم ينمو ثم يموت ، ولحياة المجتمع حدود كما أن

هناك حدودا لحياة الأفراد . وبالإضافة إلى ذلك فإن أطوار نمو المجتمع هي نفس أطوار نموالفرد فطور البداوة فى حياة المجتمع يوازى طور الطفولة فى حياة الإنسان فكلاهما يمتاز بالبساطة ، وطور الشباب الفتى الطموح يوازيه طور النمو عن طريق الغزوات والفتوح فى المجتمع ، ذلك الطور الذى يؤدى إلى اكتمال النضوج الذى هو الطور الثالث فى نمو كل من الفرد والمجتمع ، وينتهى هذا الطور الثالث بالضعف ثم الاضمحلال . ويذكرنا ما كتبه ابن خلدون عن صلة الفرد بالمجتمع — من حيث تشبيه أحدهما بالآخر — بما جاء فى كتابات أفلاطون — الفيلسوف اليونانى القديم — عن رأيه فى أن المجتمع ليس إلا الفرد مكبرا ، وقد فات على كليهما أن المجتمعات — بالإضافة إلى كونها مجموعات من الأفراد — فإنها وحدات كلية لها طابعها الخاص ، وصفاتها المميزة ، وشخصيتها المنفصلة عن طبيعة الأفراد وصفاتهم ومميزاتهم .

* * *

هذه هى — بالإيجاز — فلسفة ابن خلدون الاجتماعية . والأمر الذى يعنينا هو — كما قلت فى مطلع الفصل — ذلك الضوء الذى أضفته فلسفة ابن خلدون على آرائه فى التربية والتعليم بوجه عام ، ومن ثم حددت أهدافه ووسائله . يرى ابن خلدون أن العلم والتعليم إنما هما ظاهرة إجتماعية ضمن الظواهر الاجتماعية المميزة للجنس البشرى ، وذلك لأن الإنسان — الذى يشترك فى صفاته الحيوية جمعاء مع الحيوان — يمتاز عن الحيوان بفكره الذى يساعده فى حياته وكسب رزقه ، وفى تعاونه مع أبناء جنسه ، وفى معيشته الجماعية التى تهيء لذلك التعاون ، وفى دعم حياته بمبادىء الخير التى يأتى بها الأنبياء والمرسلون . فيقول ابن خلدون « . . إن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات فى حيوانيته من الحسّ والحركة والغذاء والسكن وغير ذلك ، وإنما تميز عنها بالفكر الذى يهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه ، والاجتماع المهيء لذلك

التعاون وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى والعمل به » (١). أما العلوم والصنائع فهى تظهر فى المجتمع نتيجة لنشاط هذا الفكر البشرى ، وإن أهم مظهر من مظاهر نشاط هذا الفكر هو السعى وراء المعرفة ، لذلك يلجأ الإنسان دائما إلى التعرف على ما حصَّله من سبقه من معلومات ، وجمعه من حقائق ، وما أتقنه من حرف وصناعات، محاولا بذلك تحصيل التراث المعرفى الذى تراكم نتيجة لنشاط الفكر البشرى على مر السنين . وعلى حد قول ابن خلدون عند وصفه هذه الظاهرة التى تدفع بالإنسان إلى تحصيل المعرفة « .. فيكون الفكر راغبا فى تحصيل ماليس عنده من الإدراكات ، فيرجع إلى من سبقه بعلم أوزاد عليه بمعرفة أو إدراك ، أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه ، فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه » (٢)

وهكذا يبحث الإنسان بفطرته عمن يمكنه تزويده بالمعارف التى يبغى معرفتها ، ويستعرض تلك المعارف ، ويدرسها حتى يعرفها أو — كما يقول ابن خلدون — حتى « يحذقها وتتكون لديه ملكة لها » . وبهذه الطريقة ينشأ التعليم فى المجتمع ، وتلك النشأة إنما هى نتيجة حتمية لرغبة العقل الإنسانى فى المعرفة ، ثم فى إيجاد الوسائل الموصلة إلى الحصول على تلك المعرفة وإتقانها . « فالعلم والتعليم طبيعى فى البشر » (٣) ولا يخلو مجتمع منها ، وكلما تقدم المجتمع فى طريق الحضارة تقدمت معه العلوم ، وارتقت أساليب التعليم .

ويعتبر ابن خلدون التعليم صناعة ضمن الصنائع التى تنشأ فى المجتمعات ، ويرى أن هذه الصنائع تنشأ تدريجيا فى أى مجتمع لكونها ضرورية لحياة

---

(١) المقدمة . ص ٣٠١
(٢) المقدمة ص ٣٠١
(٣) المقدمة ص ٣٠٢

الأفراد فيه . فتنشأ أولا الصنائع «البسيطة» الأساسية التي لاغنى عنها في الحياة كالفلاحة والبناء وما إلى ذلك ، وتليها بعد ذلك الصنائع الكمالية « المركبة » التي لاتنشأ إلا في المجتمعات المتحضرة ، ومن هذه الصناعات الغناء والفنون « وتعليم العلم » . . يقول : « وتنقسم الصنائع . . . إلى مايختص بأمر المعاش ضروريا كان أو غير ضروري ، وإلى مايختص بالأفكار التي هي خاصيّة الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة ، ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها ، ومن الثاني الوراقة وهي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد ، والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك ، ومن الثالث الجندية وأمثالها والله أعلم » . (١)

ويتعلم الإنسان أي صناعة ويحذقها بعد الفهم والتكرار ، وهكذا « تتكون لديه ملكة فيها » — أي بمعنى آخر — يكتسب مهارة في معرفتها وأدائها . وقد اعتبر ابن خلدون أن « ملكة » الصناعة أمر عملي فكري ولكونه عمليا فهو جسماني محسوس ، والأحوال الجسمانية المحسوسة نقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة . والملكة صنعة راسخة تحصل عند إستعمال ذلك الفعل وتكراره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته » (٢) ولما كان استيعاب العلم وفهمه والحذق فيه « إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله »(٣) فإن تعليم العلم على ذلك صنعة ضمن الصنائع . ويستدل

---

(١) المقدمة ص ٢٨١
(٢) المقدمة ص ٢٨١
(٣) المقدمة ص ٣٠٢
(٤) المقدمة ص ٣٠٢
(٥) المقدمة ص ٢٦٧

أيضا على رأيه هذا فى أن العلم صناعة بقولة «فلكل إمام من الأئمة المشاهير إصلاح فى التعليم يختص به شأن الصنائع كلها» . [1]

وتنشأ الصنائع فى المجتمعات لأنها وسائل لكسب الرزق بالإضافة إلى أنها ضرورية لحياة الأفراد . ويرى ابن خلدون أن «الكسب هو قيمة الأعمال البشرية» [2] . إذن فطلب العلم وتعليمه إنما يمارسهما الإنسان لغرض كسب الرزق أيضا ، بالإضافة إلى كونهما نتائج حتمية لنشاط العقل البشرى .

* * *

من هذا يتضح أن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية وجهت تفكيره فى شؤون العلم والتعليم وجهة واقعية مادية . فهو لم يفرق بين التعليم العقلى والتعليم العملى ، ذلك التفريق التقليدى الذى سار عليه المفكرون فى شؤون التربية والتعليم ممن سبقوه ، بل إنه ربط بين القوى العقيلة والقوى الجسمانيه التى تعمل متعاونة لاكتساب مهارة أو لحذق معرفة بدلالة اعتباره أن «الملكة» التى تتكون من جراء اكتساب المهارة أو حذق المعرفة إنما هى عمل فكرى جسمانى ، فكان رأيه فى هذا الشأن متفقا تماما مع أحدث النظريات النفسية فى طريقة التعلم .

كذلك فإنه لم يعتبر العلم والتعليم نشاطا فكريا تأمليا مجردا بعيدا عن نواحى النفع فى الحياة ، بل اعتبر العلم والتعليم ظاهرة حتمية ناتجة من تكوين المجتمعات وتطورها فى سلم الحضارة . فالعقل البشرى يدفع الإنسان إلى الإلمام بالمعارف الضرورية له فى حياته البسيطة فى الأطوار الأولى لتكوين المجتمعات . ثم تنشأ العلوم بتراكم تلك المعارف على مر الزمن «لأن العلم نتيجة لاختلاج الفكر» [3] ثم ينشأ التعليم نتيجة لرغبة الإنسان فى الإلمام بها وحذقها . إذا فالعلم والتعليم وليدين للحياة المتحضرة ويعملان على بقائها والرقى بها .

---

(١) المقدمة ص ٣٠٢

(٢) المقدمة ص ٢٦٧

(٣) المقدمة ص ٣٥٨

ولما كان «العلم والتعليم» «صنعة من الصنائع» ، وكانت الصنائع تنشأ فى المجتمع لضرورتها لحياة أفراده فى أول الأمر ، ثم لكونها سبيلا من سبل الارتزاق فيما بعد ، فإن السعى وراء التعلم إذا يكون سعيا — بالإضافة لكونه نشاطا عقليا طبيعيا فى فطرة الإنسان — نفعيا بقصد الحصول على طريقة للتعيش والإرتزاق ، ويصبح المعلم صانعا محترفا لمهنة التعليم التى هى صنعة من الصنائع .

مما سبق يتبين أنه كان هناك أكثر من هدف واحد للتربية فى نظر ابن خلدون ، فقد اعتبر ابن خلدون أولا أن الهدف من التعليم إنما هو إعطاء الفرصة للفكر كى ينشط ويعمل ، إذ اعتبر هذا النشاط ضروريا لتفتح الفكر ونضجه ، فيعود هذا النضج على المجتمع بالفائدة ، فالفكر الناضج أداة لتقدم العلوم والصنائع والنظم الاجتماعية .

كذلك فقد رأى ابن خلدون أن الإنسان يهدف من وراء السعى لتحصيل العلم إلى الإلمام بنواحى المعرفة المختلفة ، التى تعتبر وسيلة تساعده على أن يحيا حياة طيبة فى مجتمع راق متحضر ، فيكون ابن خلدون متفقا مع هربرت سبنسر فى هذا الرأى ؛ فقد رأى سبنسر أن التربية يجب أن تساعد الفرد على أن يحيا «الحياة الطيبة» ، وهكذا نظم منهجه المعروف — الذى قدم فيه العلوم على نواحى المعرفة الأخرى — وقال إن هذا المنهج كفيل بتحقيق الوصول إلى هذا الهدف .

وبالإضافه إلى هذا فقد رأى ابن خلدون أن الإلمام بالعلوم والصنائع ، وكسب المهارة فى حذقها وإتقانها إنما هو وسيلة لكسب الرزق ، فأكد بذلك إتجاهه الواقعى النفعى — الذى استمده من فلسفته الإجتماعية — فجعل التعليم مهنة يمكن استغلالها للارتزاق . وهكذا نجد ابن خلدون يخالف — مرة

أخرى — الكتاب والفلاسفة الأقدمين أمثال أفلاطون وأرسطو ، كما يخالف الأئمة المسلمين مثل الغزالى وغيره فى الرأى لاعتباره أن تعليم العلم يجب أن يكون مهنة تساعد على كسب العيش ، وأن الإنسان لا يطلب العلم لمجرد السمو بالعقل والجسم والروح كما رأى فلاسفة اليونان ، أو لمجرد التقرب من الله وسعادة الآخرة كما رأى معظم أئمة المسلمين .

الباب الثالث

العلوم وأقسامها

المنهـــج

يتضح من الباب السابق أن ابن خلدون أعتبر كثرة العلوم والصنائع وتقدمها ، وتنوعها فى أى مجتمع من المجتمعات ، ثم أهتمام أفراد هذا المجتمع بتحصيلها ، والإضافة إليها، إنما هى دلائل تشير إلى رقى هذا المجتمع وتحضره. فالعقل البشرى — الذى هو هبة من الخالق تميز الإنسان عن الحيوان — يعمل وينشط بطبيعته ، فتنشأ العلوم والصنائع بالتدريج . فالعلوم والصنائع نتائج « لاختلاج الفكر » أى لنشاط العقل البشرى؛ على أن العقل البشرى لا يصل إلى أوج نشاطه، ويبلغ أكمل تفتحه إلا فى المجتمع المتحضر الذى يجد فيه مجالا للعمل والمران ، فتزداد قدرة العقل على العمل والإنتاج والإبتكار . فالعلوم والصنائع — التى هى وليدة العقل البشرى — كلما كثرت وتقدمت ، وزاد احتكاك الفكر الإنسانى بها زاد نشاطه وقدرته ، أى أن العقل يولد العلوم والمعارف والصنائع ثم يعود فيتأثر بها فيزداد قدرة على توليدها وتنقيحها وهكذا . يقول ابن خلدون : « ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها الى النفس أثر يكسبها عقلا جديدا تستعد به لقبول صناعة أخرى ويتهيأ العقل بسرعة الإدراك للمعارف . . . وحسن الملكات فى التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية يزيد الإنسان ذكاء فى عقله وإضاءة فى فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس اذ قدمنا أن النفس إنما تنشأ بالإدراكات وما يرجع اليها من الملكات »[1] .

---

(١) المقدمة ص ٣٠٥

وقد اهتم ابن خلدون بتصنيف العلوم وتقسيمها ، وبيان ما تبحث فيه ، وتقدير فائدتها للمتعلم ، حتى يمكنه أن يضع منهجا دراسـيا مناسباً ، بحيث يكون أداة للوصول إلى تحقيق أهداف التعليم عنـده . فتجد ابن خلدون يعطى تاريخاً كاملا للعلوم والآداب عند العرب منذ بدء الإسلام حتى القرن الثامن ، فيكون أول مسلم كتب تاريخ الحركة الأدبية والعقلية للمسلمين بطريقة تكاد تكون حديثة ، ولا زالت المدارس العصرية لتاريخ الآداب فى مصر تتخذه نموذجا وتعتبره أوثق مصدر يمكن الرجوع إليه(١)، كما نجد ابن خلدون رتب العلوم فى درجات تنازلية حسب فائدتها للمتعلم وأسبقيتها فى الأهمية بالنسبة لتعليمه .

وقد قسم ابن خلدون العلوم المنتشرة فى المجتمعات المتحضرة حتى عصره إلى قسمين كبيرين هما :

١ — العلوم النقلية : وهى علوم ينقلها الإنسان عمن وضعها أو أسسها ، وتتوارثها الأجيال ، وكل هذه العلوم « مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعى ولا مجال فيها للعقل إلا فى إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول » (٢)وتسعى هذه العلوم إلى شرح العقيدة وتنظيم فرائض الدين ، وسن القوانين الشرعية أى أن العلوم النقلية هى علوم الدين بأنواعها ، وما يرتبط بها من علوم مساعدة لها ، ومهيئة لدراستها مثل علم اللغة والنحو وغيرهما . يقول ابن خلدون : « وأصل هذه العلوم (أى العلوم النقلية) كلها هو الشرعيات من الكتاب والسنة التى هى سنة مشروعة لنـا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التى تهيئها للإفادة » . (٣)

---

(١) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطه حسين ص ١٥٦ — ١٥٧

(٢) المقدمة ص ٣٠٥

(٣) المقدمة ص ٣٠٥

وتشمل العلوم النقلية كتاب الله والسنة ومنهما « يعرف الإنسان أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه »(١) وهذه الأحكام مأخوذة من « الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أو بالإلحاق »(٢) ، وعلم التفسير وهو « النظر فى الكتاب ببيان ألفاظه أولا . . ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذى جاء به من عند الله »(٣) وعلم القراءات الذى يبين إختلاف روايات القراء فى قراءة القرآن .

كذلك تشمل العلول النقلية علوم الحديث التى تعنى « بإسناد السنة إلى صاحبها والكلام فى الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالها وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم مايجب العمل بمقتضاه من ذلك »(٤) ، وعلم أصول الفقه الذى يعنى « باستنباط الأحكام (المأخوذة من كتاب الله) من أصولها من وجه قانونى يفيد العلم بكيفية هذا الإستنباط »(٥) ،وعلم الفقه الذى هو معرفة أحكام الله تعالى فى أفعال المكلفين بالوجوب والحذر والندب والكراهة والإباحة وهى متلقاه من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة(٦) .

وتشمل العلوم النقلية أيضاً علم الكلام وهو علم « يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد »(٧)

---

(١) المقدمة ص ٣٠٥
(٢) المقدمة ص ٣٠٥
(٣) المقدمة ص ٣٠٥
(٤) المقدمة ص ٣٠٥ — ٣٠٦
(٥) المقدمة ص ٣٠٦
(٦) المقدمة ص ٣١٢
(٧) المقدمة ص ٣٢١

ويضيف بن خلدن علم التصوف إلى العلوم الشرعية ويقول إنه أحـــد العلوم « الحادثة فى الملة » ، وأن علم التصوف ناتج عن إنقطاع بعض الصحابة والأئمة للعبادة وإعراضهم عن زينة الحياة الدنيا وترفها ، ، وزهدهم فى الدنيويات ، ولذا فنهم من كتب فى الورع ومحاسبة النفس ، ومنهم من كتب فى أصول العبادات وما إلى ذلك .

كذلك يضيف ابن خلدون علم تعبير الرؤيا أيضاً إلى العلوم الشرعية ويقول إنه « علم حادث فى الملة عندما صارت العلوم صنائع وكتب الناس فيها »(١) . كما يقول أن تعبير الرؤيا وتفسير الأحلام معروف من القدم ، ويذكر كيف فسر سيدنا يوسف عليه السلام الرؤيا ، ويقول إن هذا العلم مبنى على قوانين وقرائن تناقلها الناس من جيل إلى جيـــل وألف بعضهم فيها الكتب .

ويقول ابن خلدون إن العلوم النقلية كلها « مختصة بالملة الإسلامية وأهلها »(٢) فدراستها واجبة على كل مسلم وضرورية لحياته لارتباطهـا بالدين الذى يساعد الفرد على أن يحيا حياة طيبة فاضلة ، معصومة من الأخطاء . أما العلوم الدينية غير الإسلامية ، والتى تقترن بالديانات التى أنزلت قبل ظهور الإسلام ، فإنه ينبغى تجنب دراستها « فقد نهى الشرع عن النظر فى الكتب المنزلة غير القرآن »(٣) ذلك لأن القرآن يتناول الحياة البشرية من جميع نواحيها روحية كانت أم مادية ، ومنه تؤخذ القوانين التى يسير وفقها المجتمع ، أما الكتب الدينية الأخرى فلا تعنى إلا بالنواحى الروحية فقط . وقد وفى القرآن هذه النواحى حقها . وبالإضافة إلى هذا فإن العلوم الشرعية

---

(١) المقدمة ص ٣٣٣

(٢) (٣) المقدمة ص ٣٠٦

قد بلغت من التنظيم والاكتمال والتنقيح مبلغاً عظيما » فجاءت من وراء الغاية فى الحسن والتنميق ، وكان لكل فن رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها (١)

٢ — العلوم العقليـة : وهى ثمرة نشاط الفكر البشرى وتأملاته ، وهى « طبيعية للإنسان من حيث أنه ذو فكر فهى غير مختصة بملة بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستوون فى مداركها ومباحثها ، وهى موجودة فى النوع الإنسانى منذ كان عمران الخليقة وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة » (٢) ويهتدى الإنسان إلى هذه العلوم بمداركه البشرية فيلم بموضوعاتها » ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها » (٣)

فهذه العلوم إذن لا صلة لهـا بالدين الإسلامى ولا بغيره من الأديان ، وهى علوم تعرف عليها الإنسان بالتدريج منذ نشأته ، بفضل نشاط فكره ، على ذلك فلابد لعامة الناس من دراستها ومعرفتها لأنها علوم ناضجة وضرورية لحياة المجتمعات المتحضرة ، وللرقى بالفكر ، وتشمل العلوم العقلية أربعة علوم :

(أ) علم الطبيعيات : « وهو علم يبحث عن الجسم من جهة وما يلحقه من الحركة والسكون ، فينظر فى الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعدن ، وما يتكون فى الأرض من العيون والزلازل ، وفى الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق ، وغير ذلك فى مبدأ الحركة للأجسام وهو النفس على تنوعها فى الإنسان والحيوان والنبات » (٤) ويقول إن علماء المسلمين من أمثال ابن سينا ألفوا فيهـا كتباً

---

(١) المقدمة ص ٣٠٦
(٢) المقدمة . ص ٣٣٥
(٣) المقدمة . ص ٣٠٥
(٤) المقدمة . ص ٣٤٥

قيّمة بعد دراسة هذه العلوم كما جاء بها فلاسفة اليونان مثل أرسطو ، كما ترجم ابن رشد كتب أرسطو نفسها ، فصارت هذه العلوم فى متناول يد الدّارسين من المسلمين .

فعلم الطبيعيات — إذن — يشمل مجموعة من العلوم تشبه التى نعرفها اليوم باسم العلوم الطبيعية ، والعلوم الحيوية ، كما تشمل أيضاً — فى رأى ابن خلدون — على الطب والفلاحة .

ب — علم الإلهيات : « وهو علم ينظر فى الوجود المطلق ، فأولا فى الأمور العامة للجسمانيات والروحانيات من الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والإمكان وغير ذلك ، ثم ينظر فى مبادى الموجودات وأنها روحانيات ، ثم فى كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها ، ثم فى أحوال النفس بعد مفارقة الأجسام وعودها الى المبدأ ، وهو عندهم علم شريف يزعمون أنه يوقفهم على معرفة الوجود على ماهو عليه » (١) ، ويسمى هذا العلم بعلم ماوراء الطبيعة وقد كتب كل من ابن سينا وابن رشد أيضا ملخصا لهذه العلم فى مؤلفاتهما وتراجمهما ، على أن الناس خلطوا بين هذه العلوم وبين علم الكلام فيما بعد فكان لهذا خطره .

حـ — علم الرياضيات : وهو العلم « الناظر فى المقادير » (٢) ويشمل أربعة علوم لكل منها فروع وهى :

١ — العلوم الهندسية : وتنظر « فى المقادير إما المتصلة كالخط والسطح والجسم ، وإما المنفصلة كالأعداد وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية » (٣) ،

---

(١) المقدمة . ص ٣٤٧
(٢) المقدمة ، ص ٣٠٥
(٣) المقدمة : ص ٣٤٠

ومن فروع الهندسة « الهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية والمخروطات ». كذلك علم المساحة وهو « فن يحتاج اليه فى مسح الأرض »(١)، وعلم « المناظر من فروع الهندسة » وهو علم تتبين به « أسباب الغلط فى الإدراك البصرى بمعرفة كيفية وقوعها بناء على إدراك البصر »(٢) وهو علم يشبه مايعرف الآن بعلم « البصريات » Optics .

٢ — علوم العدد وأول هذه العلوم هو « علم الأرتماطيقى » وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف إما على التوالى أو بالتضعيف »(٣)، ومن فروع علم العدد أيضاً « صناعة الحساب وهى صناعة عملية فى حساب الأعداد بالضم والتفريق »(٤)، ويشمل الجمع والطرح والضرب وحساب الكسور والنسبة والتناسب وما إلى ذلك . كذلك فمن فروع علم العدد أيضاً علم الجبر والمقابلة « وهى صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل العدد المفروض اذا كان بينهما نسبة تقتضى ذلك »(٥)، كما أن من فروعه أيضاً « علم المعاملات » وهو « تصريف الحساب فى معاملات المدن فى البياعات والمساحات والزكوات وسائر مايعرض فيه العدد من المعاملات » (٦) « وعلم الفرائض » « وهى صناعة حسابية فى تصحيح السهام لذوى الفروض فى الوراثات اذ تعددت وهلك بعض الوارثين وانكسر سهامه على ورثته . . . » (٧)

---

(١) المقدمة : ص ٣٤١
(٢) المقدمة : ص ٣٤١
(٣) المقدمة : ص ٣٣٧
(٤) المقدمة : ص ٣٣٨
(٥) المقدمة . ص ٣٣٩
(٦) المقدمة : ص ٣٣٩
(٧) المقدمة : ص ٣٣٩

أى أن علوم العدد تشمل علم الحساب الحالى بفروعه كما تشمل علم الجبر أيضاً .

٣ — الموسيقى : « وهو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وثمرته معرفة تلاحين الغناء » . (١)

٤ — علم الهيئة : وهو علم «ينظر فى حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيزة ويستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأضاع للأفلاك لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية ، كما يبين على أن مركز الأرض مباين لمركز فلك الشمس بوجود حركة الإقبال والإدبار . . الخ (٢) ومن فروعه « علم الأزياج » وهو «صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب عن طريق حركته (٣) ،أى أن علم الهيئة يشبه العلوم التى تعرف الآن بالعلوم الفلكية .

٢ — علم المنطق : هو رابع العلوم العقلية ، وهو علم « يعصم الذهن من الخطأ » (٤) وهو عبارة عن قوانين « يعرف بها الصحيح من الفاسد فى فى حدود المعرفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات وذلك أن الأصل فى الإدراك إنماهو المحسوسات بالحواس الخمس ، وجميع الحيوانات مشتركة فى الإدراك من الناطق وغيره ، وإنما يتميز الإنسان عنها بإدراك الكليات وهى مجردة عن المحسوسات » (٥) وهذه القوانين المنطقية الناشئة من تكوين العقل للمدركات الكلية تساعد الإنسان فى حكمه على مختلف الشؤون .

---

(١) المقدمة : ص ٣٣٥
(٢) المقدمة : ص ٣٤٢
(٣) المقدمة :ص ٣٤٢
(٤) المقدمة : ص ٣٣٥
(٥) المقدمة : ص ٣٤٣

ويعتبر ابن خلدون علم المنطق من العلوم المساعدة للعلوم العقلية الأخرى ، كما اعتبر علوم اللغة والنحو والأدب والبيان علوماً مساعدة للعلوم النقلية .

وعند ما رتب ابن خلدن العلوم حسب أهميتها للمتعلم قسمها إلى أربعة أقسام ، ووضع كل قسم منها فى مرتبة مناسبة لضرورته وفوائده وأسبقيته على غيره . أما هذه الأقسام فهى :

١ ــ العلوم الشرعية بأنواعها .
٢ ــ العلوم الفلسفية كالطبيعيات والإلهيات .
٣ ــ العلوم الآلية المساعدة لعلوم الدين كاللغة والنحو وغيرهما .
٤ ــ العلوم الآلية المساعدة للعلوم الفلسفية كالمنطق .

وقد وضع ابن خلدون القسمين الأولين وهما العلوم الشرعية والعلوم الفلسفية فى مرتبة واحدة وسماهما بالعلوم « المقصودة بالذات » ، إلا أنه فضل العلوم الشرعية ــ إذا دعت الحاجة للتفضيل ــ على العلوم الفلسفية لأنها علوم « معصومة » ولأنها ــ كما يقول ــ تسد حاجات الإنسان الحقيقية. ودون هذين القسمين وضع العلوم « الآلية » المساعدة لعلوم الدين ثم تليها العلوم الآلية المساعدة للعلوم الفلسفية ،وقد نصح بالتوسع فى دراسة العلوم « المقصودة بالذات » لأن ذلك « يزيد طالبها تمكنا من ملكته وإيضاحا لمعانيها المقصودة » (١)

أما العلوم « الآلية » المساعدة للعلوم الشرعية والفلسفية فإنه نصح بألا تدرس « إلا من حيث هى آلة لغيرها (أى للعلوم المقصودة بالذات)

---

(١) المقدمة ص ٣٩٦

فقط ». (١) فلا ينبغى التوسع فيها ولا التعمق لأن ذلك يفقدها خاصيتها ألا وهى كونها أداة لمساعدة دراسة العلوم المقصودة بالذات . وقد اعتبر التبحر فى هذه العلوم الآلية مضيعة للوقت ، فتصبح بذلك عائقا يحول دون إتقان المتعلم للعلوم التى هى أهم منها ، وعلى حدّ قول ابن خلدون فإن « التوسع فى دراسة هذه العلوم الآلية تضييعا للعمر وشغلاً بما لا يعنى . . . وربما يقع فيها أنظار لاحاجة بها فى العلوم المقصودة فهى نوع اللغو وهى أيضاً مضرة بالمتعلمين على الإطلاق لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها فإذا قطعوا العمر فى تحصيل الوسائل فتى يظفرون بالمقاصد . » (٢) أى أن من يحاول التبحر فى علم النحو مثلا قد يمضى حياته كلها دون الوصول إلى تحقيق هدفه ، وقد يؤدى هذا إلى الإضرار به لأن الشعور بالقصور والفشل يثبط العزيمة ، والأفضل أن يلم المتعلم بالعلوم عموما إلى حدّ ما حتى يكون تعليمه أوسع وأشمل ، ويكون لديه الوقت الكافى للتعمق فى دراسة العلوم المقصودة إذا وجد الفرصة مؤاتية فيما بعد . ويقول ابن خلدون إن الغرض من التعليم العام ليس إعداد الأخصائيين فى نواحى العلوم الضيقة بل هو مد التلاميذ بالعلوم التى تعاونهم على أن يحيوا الحياة الطيبة .

وبالرغم من أن ابن خلدون اعتبر علم التاريخ من أهم العلوم التى يلزم أن يدرسها الناس كبيرهم وصغيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، والتى يتساوى فى فهمها المتعلم وغير المتعلم ، فيقول إن « فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال وتشد إليـــه الركائب والرحال ، وتسمو إلى معرفة السوقة والأغفال ، وتتنافس فيـه الملوك والأقيال ، ويتساوى فى فهمه العلماء

---

(١) المقدمة : ص ٣٩٧

(٢) المقدمة : ص ٣٩٧

والجهال . . . »(١) ، أقول إنه بالرغم من هذا فإن ابن خلدون لم يدرج علم التاريخ لا فى العلوم العقلية ولا فى العلوم النقلية ، ولا يعرف بالضبط أين يكون موضع علم التاريخ فى أقسام العلوم ، اللهم إلا إذا كان ابن خلدون قد اعتبره علما ثقافيا مستقلا عن الأقسام المذكورة . ولقد كتب ابن خلدون التاريخ بطريقة جعلته أقرب إلى علم الإجتماع الخالى منه إلى علم التاريخ التقليدى .

وقد عامل ابن خلدون علم الجغرافيا وتقسيم الأقاليم بالمثل فلم يدرجه ضمن أقسام العلوم المذكورة أيضا .

ولم يدرج ابن خلدون الصنائع ضمن أقسام العلوم بالرغم من أنه اعتبر أن تعليم العلوم صنعة من الصناعات ، واعتبر هذه الصنعة من الصناعات الكمالية التى لا تنشأ وتزدهر ، ولا تجد رواجا وتزداد أهمية إلا فى المجتمعات المتحضرة (٢)، فإذا اعتبرت العلوم ضمن الصنائع الراقية — كما اعتبرها ابن خلدون — تكون الصنائع إذن مكملة للعلوم ، فالعلوم والصنائع نتائج للسعى وراء ضروريات الحياة فى المجتمع المتطور ، كما أن « معلم العلم » صانع محترف وصناعة التعليم مهنة ضمن المهن الصناعية(٣) .

وقد قسم ابن خلدون الصنائع إلى عدة أنواع ، نوع ضرورى لحياة المجتمع فى جميع أطواره التى يمر بها من البداوة للتحضر مثل الفلاحة والبناء والخياطة والتجارة ، ونوع « شريف بالموضوع » مثل التوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب ، ونوع خاص بالأفكار كالكتابة والغناء والشعر

---

(١) المقدمة : ص ٢

(٢) المقدمة : ص ٢٨٦

(٣) المقدمة : ص ٣٠٢ ، ٣٠٥

وتعليم العلم والسياسة . وقد أضاف ابن خلدون «الجندية» إلى الصناعات أيضا ويلاحظ أن ابن خلدون يدرج « الطب » ، والفلاحة والحساب وغيرها ضمن الصناعات، كما يضعها أيضا ضمن العلوم الطبيعية ، وبهذا يؤكد ابن خلدون عدم تفريقه بين النواحي العقلية والنواحي العملية فى التعليم .

ويذكر أن الصنائع لابد لها من معلم كما هى الحال فى العلوم(١) وأن تعليم الصنائع مثل تعليم العلوم لابد له من تكوين « ملكة » أى حذق مهارة وهذا الحذق لا يأتى إلا بعد الفهم ثم تكرار العمل حتى « يرسخ فى الذهن » وتتكون ملكته .

ويتضح من تقسيم ابن خلدون للعلوم من الصنائع على هذا النحو أنه اتجه فى تفكيره فيها اتجاهات معينة نحصرها فيما يأتى : —

أولا : إتجاه نحو عدم التفريق بين النظرى والعملى من العلوم ، ذلك الاتجاه الذى يظهر لنا أيضا عندما يبين ابن خلدون أن « الملكة » التى تتكون من تعليم العلم ، أو اكتساب المهارة فى أى صناعة إنما هى نتيجة لنشاط « عقلى جسمانى » فى آن واحد . فيكون ابن خلدون متفقا تماما مع آخر ما وصلت إليه نظريات التربية الحديثة التى ترى أن التعلم لابد أن يشترك فيه الجسم والعقل معا ، ولا يكون التعلم صحيحا أو كاملا إلا إذا حدث هذا .

ثانيا : إتجاه نحو إيجاد التوازن بين علوم الدين والعلوم العقلية ، فإنه بالرغم من وضعه علوم الدين فى المكان الأول من حيث فائدتها المتعلم ، إذ

---

(١) المقدمة : ص ٢٨١

تساعده على أن يحيا حياة طيبة ، وضع العلوم العقلية أيضا فى موضع لا يقل شرفا ولا أهمية عن العلوم الدينية ، ذلك لأنها ناتجة من نشاط العقل البشرى الذى هو أعظم هبة من الله للإنسان .

فابن خلدون — إذن — لم يهمل العلوم الدينية أو يقلل من قيمتها للتعلم بل إنه لم يحكم عليها من الناحية الروحية فقط - كما فعل غيره من كتاب المسلمين ممن سبقوه كالغزالى مثلا ، بل إنه نظر إليها كعلوم ضرورية لحياة الإنسان الفاضلة الطيبة التى لا تتم إلا بالاستقامة الخلقية ، والتنظيم القانونى . كذلك لم يهضم ابن خلدون حق العلوم العقلية ، بل وضعها فى مستواها اللائق وبين أهميتها التى لا تقل كثيراً عن أهمية علوم الدين .

ثالثاً : اتجاه نحو اعتبار مهنة التعليم وسيلة محترمة لاكتساب الرزق . فأدخل هدفاً جديداً للتعليم هو احتراف مهنة التدريس لغرض الارتزاق .

وهنا يختلف ابن خلدون اختلافاً كبيراً عمن سبقه من كتاب المسلمين كالغزالى وغيره ، الذين اعتبروا من يبغى العلم لقصد جعله وسيلة لكسب الرزق إنما يأتى أمراً شائناً ، ولم يكن كتاب المسلمين وحدهم منفردين بهذا الرأى فقد شاركهم فيه الأقدمون كاليونان وغيرهم ، كما شاركهم كثيرون من المربين والكتاب الغربيين الذين ظهروا فى عصر النهضة وبعدها ، وفرقوا بين التربية الحرة اللائقة بالطبقات العليا من الشعب ، والتربية المهنية التى لا تليق إلا بعامة الشعب .

رابعاً : اتجاه نحو جعل التعليم عاماً شاملا لنواحى المعرفة المختلفة ، والبعد عن الاختصاص الضيق مع التعمق فى العلوم وخصوصا فى العلوم الآلية كعلوم اللغة والمنطق . وهـذا الاتجاه نحو التعليم العام الشامل والبعد عن التخصص يتجاوب إلى حد كبير مع الآراء الحديثة فى التربية التى تطالب بعدم

التخصص أو التعمق فى أى ناحية من نواحى المعرفة وخصوصا فى المراحل الأولى من التعليم .

على هذا الأساس يكون ترتيب العلوم بحسب أهميتها للمتعلم كما يرى ابن خلدون على النحو الآتى :

١ — العلوم الدينية والشرعية وهى من العلوم المقصودة بالذات مثل القرآن الكريم والسنة والفقه والتفسير والحديث الخ(١) .

٢ — العلوم العقلية كالطبيعيات والإلهيات وهذه أيضا علوم « مقصودة بالذات(٢) .

٣ — العلوم « الآلية » المساعدة للعلوم الشرعية كعلم اللغة والنحو والبلاغة الخ .

٤ — العلوم « الآلية » المساعدة للعلوم العقلية (الطبيعيات والإلهيات) مثل علم المنطق .

على أن ابن خلدون ينصح بعدم الإكثار من العلوم التى تدرس للأطفال ، لأنها ضارة بتقدمهم العقلى ، كما أنها تتعدى مقدراتهم ، وعلى هذا تؤدى إلى شعورهم بالفشل وتثبط عزائمهم .

وينصح ابن خلدون بأن يعطى تعليم اللغة العربية أكبر عناية ، وأن تجعل دراستها أساسا لكل علم . وهو يبين أنه لا يقصد من العناية بهذه الدراسة التبحر فى النحو والبلاغة بصورة نظرية ، وإنما يقصد أن تكون دراسة اللغة

---

(١) و (٢) المقدمة ص ٣٩٦

العربية بقصد تدريب الطفل على إجادة التعبير عن أفكاره ، وعلى إتقان الكتابة ودقتها بحيث يفهم الطفل ما يكتبه على أصله، كما يجيد فهم ما يقرأ .

أما دراسة اللغة العربية التى تصل بصاحبها إلى التبحر فيها فإن ابن خلدون يعتبرها — كما اعتبرها سبنسر وقد جاء بعده قرون — من الدراسات الكمالية التى ينبغى ألا يدرسها المتعلم إلا بعد إتقانه لدراسة العلوم « المقصودة بالذات » ، فيكون المتعلم حينئذ قد بلغ أشده ، ويكون عقله قد نمى وأصبح مهيأ لدراسة تلك العلوم على مستوى عال .

ويرى ابن خلدون أن البدء بتدريس العلوم الأخرى — كالقرآن مثلا وعلوم الدين — وتقديم تدريس هذه العلوم على تدريس اللغة العربية ، فإن من شأنه أن يخلط الأمر على الصبى فيقرأ مالا يفهم ، ويلحن فى اللفظ ، ويخلط المعانى . ويقول ابن خلدون إنه يقدم هذا الرأى فى تفضيل البدء بتعليم اللغة العربية ، وجعلها أساساً لجميع الدراسات بحيث تمكن المتعلم من إجادة الفهم والتعبير ، لأنه رأى بعض اللغويين المتمكنين من مادتهم لايحسنون التعبير عن آرائهم بطريقة صحيحة ، ولم يكن هذا القصور فى التعبير نتيجة لقصورهم فى التفكير .

وينتقد ابن خلدون المناهج المختلفة المستعملة فى تعليم الصغار فى وقته بكل من بلدان المشرق والمغرب ، ويبيّن أثر هذه المناهج على تكوين الصغار عموماً ، فمثلا يبين أن البـــدء بدراسة الأدب والشعر وتقديمها على دراسة العلوم الأخرى ، وإعطائهما جل الاهتمام - كما هى الحال فى بلاد الأندلس - يجعل المتعلمين متقدمين فى اللغة والأدب ، وذلك على حساب تقصيرهم فى العلوم الأخرى . فيقول : « وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن فى التعليم وكثرة رواية الشعر والأدب والترسل وممارسة العربية من أول العمر حصول ملكة

صاروا بها أعرف فى اللسان العربى وقصروا فى سائر العلوم لبعدهم عن دراسة القرآن »(١) كما يقول إن أهل المغرب أفادهم « الاقتصار على القرآن عن ملكة الإنسان جملة ، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه فى الغالب ملكة كما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها وليس لهم ملكة غير أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة فى اللسان العربى ، وحظه الجمود فى العبارات وقلة التصرف فى الكلام »(٢) .

ويقول ابن خلدون أيضاً إن من العبث أن نعلم الصغار المنطق كى نعودهم التفكير الصحيح، لأن المنطق ليس إلا وصفاً « لاختلاج الفكر » وطرق تقليل هذه الملكة المفكرة — وهو ما لا يفهمه الصغير لذا يستحسن ألا يعلمه إلا عندما ينضج فكره ويفهم مدلوله ، وينقد فكرة البدء بتعليم القرآن للطفل من حداثته ذلك لأنه ليس هناك ما يضمن أن من درس القرآن سوف يقتدى بتعاليمه ، أو أنه سوف يكتب بلغة فصحى لا خطأ فيها ، كما أن تأثير حفظ القرآن أو دراسته فى النواحى المعنوية يكون أضمن لو درسه المتعلم وهو يفهم ما يقرأ ، فعندئذ يمكن للمتعلم أن يعطى المواعظ القرآنية قدرها من الإجلال والاحترام ، ولا يحدث هذا إلا بعد أن يصل المتعلم إلى سن معينة ، ومستوى خاص فى التفكير .

ويعود ابن خلدون فيؤكد النصح بالبدء بدراسة اللغة العربية متخذاً من قول القاضى أبى بكر ابن العربى رأياً مؤيداً لرأيه فى هذا الشأن(٣) بيد أنه لا يظهر التفاؤل بأن الرأى الذى ينصح به كلاهما سوف يؤخذ به ، ذلك لأن

(١) المقدمة : ص٣٩٨

(٢) المقدمة : ص٣٩٨

(٣) انظر المقدمة ص ٣٩٨

عادة البدء بتعليم القرآن عادة مستبدة وطاغية فى المجتمعات الإسلاميه على وجه العموم .

ولابن خلدون رأى فى اللغة التى يجب أن تدرس بها العلوم ، فينصح أن تدرس العلوم المختلفة باللغة الأصلية لأن التدريس باللغة الأجنبية يعتبر عاملا معطلا، ذلك لأنه من الصعب أن يحذق المتعلم فنين فى وقت واحد ، كما أن دقة التعبير لازمة فى دراسة العلوم المختلفة ، ولا يمكن أن تتم إلا إذا كان المتعلم متمكنا من اللغة التى يستعملها فيسهل عليه الفهم وعلى المعلم التفسير ، فإذا كانت اللغة أجنبية على المتعلم يكون من الصعب تمكنه منها .

كما يبدى ابن خلدون رأياً آخر فى تعليم اللغة العربية ، فيقول أن تعدد اللهجات فى الأقاليم المتفرقة فى العالم العربى يجعل العناية بتعليم باللهجات الدارجة . واللغات العامية التى يتكلمها أهل المنطقة ضرورية ، لذلك يجب أن توضع قواعد ونحو وبلاغة لتلك اللهجات لأنها تطور طبيعى للغة الأصلية .

ولما تكلم ابن خلدون عن الفلسفة بفروعها المختلفة والميادين التى تبحث فيها وصفها بأنها علوم « عارضة فى العمران كثيرة فى المدن ، وضررها فى الدين كثير فوجب أن يصدع بشأنها ويكشف عن المعتقد الحق فيها » (١) ، كما قال إن كل ماتفيده الفلسفة هو المساعدة على تنظيم التفكير ، فليس « فيها ثمرة واحدة إلا ترتيب الأدلة والحجاج لتحصيل ملكة الجودة والصواب فى البراهين » (٢) . وعلى ذلك « فليكن الناظر فيها متحرزاً جهده من معاطبها وليكر نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات ، والاطلاع على

(١) المقدمة : ص ٣٨٠

(٢) المقدمة : ص ٣٨٤

التفسير والفقه ، ولا يكبّن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل أن نسلم لذلك من معاطبها »(١) ، فيكون ابن خلدون قد عامل الفلسفة بنفس الطريقة التي عامل بها الأمراء والملوك الذين أحسنوا معاملته ثم عاد فانقلب عليهم .
فقد أستعان ابن خلدون — ولا سيما في الأبواب الأولى من المقدمة — بعلوم الفلسفة ليثبت نظرياته الاجتماعية ، لكنه أنتهى في آخر الأمر بأن ذم العلوم الفسلفية بأسرها ، وجاهر أن فائدتها قليلة ، وضررها كبير . ولذا فليحذر الدارس لها من هذه الأضرار ، وذلك بتذرعه بدراسة علوم الدين أولا ، حتى لا تتسبب دراسته للفلسفة في أن يحيد عن الطريق القويم ، أو أن يكفر بالله .

كذلك فقد أعتبر ابن خلدون بعض العلوم الأخرى مثل « علم النجوم» أو التنجيم وكشف الطوالع ، وعلم الكيمياء ، وعلوم السحر والطلسمات علوما فاسدة وأضرارها كثيرة . فيقول مثلا عن الكيمياء « اعلم أن كثيراً من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع على انتحال هذه الصنائع ويرون أنها أحد مذاهب المعاش ووجوهه ، وأن اقتناء المال منها أيسر وأسهل على مبتغيه ، فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب . . . وإنما أطمعهم في ذلك رؤية أن المعادن تستحيل وينقلب بعضها إلى بعض للمادة المشتركة فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهبا والنحاس والقصدير فضة (٢) كما يقول : « من طلب الكيمياء طلبا صناعيا ضيع ماله وعمله ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير العقيم لأن نيلها إن كان صحيحا فهو واقع مما وراء الطبائع ، فهو كالمشي على الماء ، وامتطاء الهواء ، والنفوذ في كثائف الأجساد

(١) المقدمه : ص ٣٨٤

(٢) المقدمة : ص ٣٨٨

ونحو ذلك من كرامات الأولياء الخارقة.[١] فدراسة الكيمياء غير مرغوب فيها فى نظر ابن خلدون لما تسبب فيه من مضيعة للوقت والمال دون طائل على أن ابن خلدون لم يدر أن معجزة علم الكيمياء — الذى عاصره — قد تحققت فى وقتنا هذا عندما أصبح تحويل معـــدن إلى معدن آخر من من الأمور العادية .

أما علوم السحر والطلسمات فقد قال عنها إنها علوما « مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب أو غيره »[٢] لذلك كان من يدرس هذه العلوم ويمارسها إنما يكفر بالله ويحيد عن طريق الدين القويم .

هذه هى آراء ابن خلدون فى تقسيم العلوم . وفى المنهج العلمى الذى ينصح بتقديمه المتعلمين . ومن دراسة هذه الآراء يتضح لنا أن ابن خلدون — كمفكر وكمرب — برهن على أنه وضع لشئون التعليم أسسا عملية واقعية علمية . فهو يبين لنا — فى أول الأمر — أن هناك تفاعلا مشتركا بين الثقافة والتعليم عموما وبين « الرقى العقلى » — كما يسميه — فالعقل يولد العلوم والمعارف عن طريق نشاطه ثم تعود هذه العلوم فتؤثر بدورها فى العقل وترتقى به ، وهذه العملية المتبادلة بين العقل ونواحى المعرفة عملية مستمرة لا تقف عند حد . وتتفق آراء ابن خلدون فى هذه الناحية مع أحدث الآراء التربوية من أن كل معرفة جديدة يحصل عليها الفرد ، وكل تجربة جديدة يمر فيها فى حياته

---

(١) المقدمة : ص ٣٩٠

(٢) المقدمة : ص ٣٤٨

تؤثر فى عقله ، ويظهر أثر هذا التأثير فى سلوك الفرد فى المواقف الجديدة فى الحياة ، وأن التعلم عملية ديناميكية مستمرة لانهاية لها ، وكل معرفة جديدة ، وكل خبرة جديدة إنما هما درجة فى سلم نضوج الفكر ورقى العقل .

كذلك فإن آراء ابن خلدون فى المنهج تبين لنا أنه وضع العلوم الدينية والعلوم الشرعيه فى نفس المستوى الذى وضع فيه العلوم العقلية ، فهو ليس كغيره من كتاب المسلمين وفقهائهم الذين وضعوا علوم الدين فوق كل اعتبار ، وجعلوا العلوم الأخرى دونها، كما جعلوا الفرق بين علوم الدين وبين سائر العلوم فرقا شاسعا ، فجاءت مناهجهم مثقلة فى النواحى الدينية وأختل توازنها .

وقد ساوى ابن خلدون بين التعليم النظرى والتعليم العملى من حيث القيمة والضرورة للمجتمع ، وساوى بينهما أيضامن حيث تكوين « الملكة » فى كل منهما ، وهكذا تحرر من الفكرة التقليدية التى عظمت الدراسات النظرية وأعطتها قيمة مشرفة ، بينما حقرت التعليم العملى ووضعته فى مرتبة أقل بكثير من التعليم النظرى .

وقد بين ابن خلدون أن الاختصاص الضيق فى نواحى المعرفة أمر غير مرغوب فيه ، وعلى الأخص فى المراحل الأولى من التعليم ، ويرى أن التعليم فى هذه المراحل يجب أن يكون عاما وشاملا ، حتى يحصل المتعلم على قسط كاف من الثقافة العامة التى تؤهله فيما بعد للتعمق فى الدراسات المهمة ، والتى لا يمكنه أن يتقنها إلا بعد أن يكون قد حصل ما يكفى من الدراسات الأساسية فى نواحى المعرفة الأخرى . ويعتبر هذا الرأى لابن خلدون من وجهة نظر التربية الحديثة رأيا سليما وسديدا ، فإن الاتجاه الحالى فى التعليم يأخذ بمبدأ عدم التخصص إلا فى مراحل الدراسات العليا ، وبعد أن يكون

الفرد قد حصل على ثقافة عامة تمكنه من فهم دراسته التخصصية على الوجه الأكمل ، وتبعد عنه التعصب وضيق الأفق .

ومن أهم المبادىء التى أشار ابن خلدون إليها فى وضع المنهج الدراسى تأكيده ضرورة العناية بتعليم مبادىء اللغة العربية ، وجعلها أساساً لجميع الدراسات ، حتى يتمكن المتعلم من فهم مايقرأ ، ومن التعبير بدقة عما يفكر فيه . وهذا الرأى لابن خلدون — أيضاً — من الآراء السليمة المنطوية على التفكير العلمى السديد ، فبغير التمكن من اللغة يتعذر التعبير ، وهكذا تتعذر عملية نقل الأفكار من شخص لآخر ، فتصبح عملية التعليم وعملية التعلم من العمليات الشاقة العسيرة .

ويبين ابن خلدون — فى نفس الوقت — أن الإهتمام بتعليم اللغة الدارجة ، والعناية بوضع أصول لهاوقواعد ، من الأمور البالغة الأهمية ، إذ أن اللغات الدارجة ، واللهجات المحلية إنما هى لغات نشأت بتطور اللغة العربية التقليدية على مر الوقت ، وهذا التطور أمر طبيعى وحتمى ، فإن إختلاط الشعوب فى العالم الإسلامى ، وتجدد العلوم والمعارف على مر الوقت من شأنهما أن يحدثا فى اللغات تغييرات معينة . ويرى أن اللغة الدارجة هى أقرب اللغات لقلوب الأفراد ، وأنسبها للتعبير عن أفكارهم ، فهى لذلك لا تقل أهمية — إن لم تكن تزيد — على اللغة القديمة التقليدية . ويبرهن ابن خلدون برأيه فى هذا الشأن على أنه أصاب الهدف مرة أخرى ؛ فما أبعد اللغات القديمة التقليدية عن نفوس الأفراد ، وكأنها بالنسبة لهم لغة غريبة لا تمكنهم من التعبير عن آرائهم كما يرغبون .

ومما يدعو إلى التعجب أن ابن خلدون خالف الاتجاه الدينى السائد فى العالم الإسلامى ، والقائل بضرورة الأخذ بتعليم القرآن للصغار منذ نعومة

أظافرهم ؛ فيقول إن تعليم القرآن للصغار أمر غير مستحسن ، وذلك لأنهم لن يفقهوا ما جاء فيه ، ولن يكونوا قادرين على إعطاء مواعظه الاحترام والتقدير الكافيين ، كما أن تعليم القرآن لا يمكن إعتباره ضماناً كافياً للعمل بما فيه من نصائح وأحكام ، وخصوصاً إذا كان المتعلم صغير السن . وعليه فإن ابن خلدون ينصح بألا يتعلم القرآن إلا بعد أن يكون الصغير قد نمى ، ونضج فكره ، فيعى ما يقرأ ، ويعمل بما فى كتاب الله من إرشادات .

ويدل ابن خلدون فى هذه الناحية على وفرة حكمته ، فإن التربية الدينية الخلقية إنما تأتى فى الصغر — على الأخص — عن طريق الحياة الدينية الصالحة الفاضلة التى تحياها الأسرة ، والتى يمارسها الصغير فى البيت والمدرسة والمجتمع . أما محاولة جعل الصغير متدينا ، أو محاولة بث الفضيلة فى نفسه عن طريق تحفيظه القرآن فى حداثته إنما هى عملية سطحية ، عديمة العمق ، وقلما تأتى بنتائج أكثر من إستظهار الصغير لعبارات القرآن ، وترديده لها كالببغاء دون إدراك حقيق لمعانيها وعظاتها التى تعلو مستواه العقلى بكثير .

الباب الرابع

التعلم — طريقة التعليم

من المعروف أن لكل نظام تربوى فلسفة توجهه وتعينه على تحديد أهدافه ووسائله ، وقد وضحت فى الباب الثانى من هذا البحث فلسفة ابن خلدون وبينت كيف أثرت هذه الفلسفة الاجتماعية فى آراء ابن خلدون عن التربية والتعليم على وجه العموم ، ومن ثم جعلته يرى أن التربية ينبغى أن تهدف أولا إلى مساعدة الأفراد على أن يحيوا حياة طيبة ، فى مجتمع ناضج الحضارة . وقد بحثت فى الباب الثالث تقسيم ابن خلدون للعلوم المعروفة فى عصره . كما بينت رأيه فى المنهج الدراسى الذى إختاره ونظمه ، ورأى أنه وسيلة من شأنها المساعدة على تحقيق أهداف التربية .

أما هذا الباب فسوف أخصصه للبحث فى آراء ابن خلدون فى الكيفية التى يتعلم بها الفرد ، وفى الطريقة التى نصح بإتباعها فى تعليم الصغار حتى يحصلوا على الفائدة المرجوة من دراسة المنهج ، وهكذا أكون قد بينت الوسيلة الأخرى التى رآها ابن خلدون موصلة إلى أهداف التربية التى رسمها .

يشير ابن خلدون — بادىء ذى بدء — إلى أن عملية التعليم لا تتم بنجاح إلا بعد دراسة طبيعة العقل البشرى ، وتطوره من الحداثة للنضوج ودراسة الطريقة التى يتعلم الإنسان بواسطتها . فيبين ابن خلدون — لذلك — أن الأصل فى الإدراك ، إنما هو المحسوسات بالحواس الخمس ، وجميع الحيوانات مشتركة فى الإدراك من الناطق وغيره ، وإنما يتميز الإنسان عنها بإدراك

الكليات وهى مجردة عن المحسوسات ، وذلك بأن يحصل فى الخيال من الأشخاص المتفقة صورة منطبقة على جميع تلك الأشخاص المحسوسة وهى الكلى ، ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها فى بعض فيحصل له صورة تنطبق أيضاً عليها باعتبار ما اتفقا فيه ، ولا يزال يرتقى فى التجريد إلى الكل الذى لايجد له كلياً آخر معه يوافقه فيكون لأجل ذلك بسيطاً »(١)

هكذا يشرح ابن خلدون طريقة تكوين العقل البشرى للمدركات الكلية — على أنه يقول إن هذه العملية لا تحدث إلا بالتدريج ، وعلى ذلك فإن طريقة التعليم يجب أن تسير وفقاً لتدرج عمل العقل البشرى ، فالعقل يبدأ بإدراك أبسط المسائل وأسهلها ، ويتدرج بعد ذلك إلى إدراك الأكثر تعقيداً ثم الأكثر وهكذا ، فيكون ابن خلدون قد اتفق فى رأيه هذا — فى تدرج الإدراك من البسيط إلى المعقد — مع بستالوتزى المربى السويسرى الذى عاش فى أوائل القرن التاسع عشر . فقد قال بستالوتزى إن التعليم يجب أن يتدرج من البسيط المعقد ، ومن المحسوس المعقول ، ومن الجزئى للكلى .

ويعود ابن خلدون فى موضع آخر فيشرح طريقة التعلم — زيادة فى الإيضاح السابق فيقول إن من طبيعة العقل البشرى أن يسير فى التعلم وفقا لقواعد منطقية منظمة وذلك — كما ذكر سابقا — بالتدرج من البسيط المعقد فى كشف الحقائق ومعرفتها . إلا أن هناك طريقة أخرى يكشف بها العقل البشرى عن الحقائق ؛ وتشبه هذه الطريقة ظاهرة الاستبصار Insight التى يقول بها أنصار مذهب الجشتالت فى علم النفس . يقول ابن خلدون إن عقل الإنسان مكانه « البطن الأوسط من الدماغ تارة يكون مبتدئا للأفعال الإنسانية فى نظام وترتيب ، وتارة يكون مبتدأ العلم مالم يكن حاصلا »(٢)

---

(١) المقدمة : ص ٣٤٣

(٢) المقدمة : ص ٣٩٥

أما الجشتالتيون فإنهم يرون أن الإنسان عندما يتعلم بالبصيرة فإن التعلم بهذه الطريقة يكثر كلما نضج العقل ، ويرجعون هذا إلى أن الخبرات والمعرفات السابقة تساعد العقل إلى حد ما على الوصول إلى كشف الحقائق ، وحل المشكلات فجأة دون الوصول إليها عن طريق التدرج المنطقى .

وعلى ذلك ينبغى أن تمر طريقة التدريس خلال خطوات ثلاثة هى :

١ — يدرس التلميذ — مبدئياً — المعلومات العامة البسيطة التى تخص الموضوع الذى هو بصدد دراسته ، مع مراعاة كون هذه المعلومات مناسبة للمستوى العقلى للتلميذ حتى لا تكون فوق قدرته على الإدراك . وهكذا يصل التلميذ إلى أول مستوى لعملية التعلم وأبسطه ، أو — كما يقول ابن خلدون — « وعندئذ يحصل له ملكة فى ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة »(١) وقد اعتبر ابن خلدون هذه الخطوة تمهيدية للخطوة الثانية .

٢ — يعود المدرس فيقدم للتلميذ نفس المعلومات ثانية على مستوى أعلى من المستوى الذى قدمه فى الخطوة الأولى ، فيأخذ النقاط المختلفة فى الدرس بالشرح والبيان البعيدين عن الإجمال . وهكذا يصل بالمتعلم إلى مستوى أعلى من الإدراك أو — كما يقول ابن خلدون — « فتجود ملكته » .

٣ — يعود المدرس مرة ثالثة لتدريس الموضوع دراسة تفصيلية شاملة متعمقا فى نواحيه ، ومدققا فى البحث فيه «فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا إلا أوضحه وفتح له مقفله ، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته (٢) .

وهكذا تتم عملية التعلم بعد تكرارات ثلاثة . وكل تعلم يتم لا بد وأن يمر

---

(١) المقدمة : ص ٣٩٤

(٢) المقدمة : ص ٣٩٤

فى هذه الخطوات ، على أن ابن خلدون يقول إن بعض النابهين من المتعلمين قد يحتاجوا إلى خطوتين فقط لإتمام تعليمهم وخصوصا إذا كان المعلم قادرا ومتمكنا من صنعته .

هذه هى الطريقة العامة التى شرحها ابن خلدون وقال إنها الطريقة الصحيحة للتعليم لتمشيها مع تدرج التعلم ؛ وهذه الطريقة — كما نرى — مبينة على شرح المعلم للدرس ، وتقديمه للتلميذ بالتدريج مبتدئا بالبسيط ومتدرجا للمعقد، وهذا النظام المنطقى فى تدريج الدرس من البسيط للمعقد كان هو النظام الشائع والتقليدى فى الطرق القديمة للتدريس ، والتى اتبعت فى المجتمعات القديمة والإسلامية ، والتى نصح بها المربون فى مختلف العصور . على أن فكرة التدرج فى التدريس من البسيط للمركب قد رفضها الجشتالتيون (١) .

كذلك فإن طريقة التدريس التى نصح بها ابن خلدون تجعل المدرس مسيطراً سيطرة تامة على الموقف ، فهو الذى يبسط المعرفة ، ويضعها فى قالب مناسب لعرضها على التلميذ فى الخطوة الأولى ، ثم يعود ويعرضها فى قالب أرقى فى الخطوة الثانية ، وهكذا أى أن موقف المتعلم موقف سلبى، وأن النشاط كله من نصيب المعلم . وهذه الطريقة التى لا تعطى المتعلم فرصة لكى يشترك اشتراكا موجبا فعالا فى تلقى الدروس ، تعتبر غير سليمة من وجهة نظر التربية حاليا ، إذ أنها لا تساعد على إنماء التفكير بالقدر الذى يحدث لو أن المتعلم قام بمجهود شخصى فى تحصيل المعرفة .

على أن ابن خلدون يعود إلى آرائه الصائبة فى التربية عندما ينصح بأن

---

(١) معنى « الجشتالت » هو الشكل ويرى مذهب أنصار الجشتالت فى علم النفس أن التعلم يبدأ بإدراك الشكل أولا ثم يأتى بعد ذلك إدراك التفاصيل، فهو إذا مذهب مخالف لمذهب تدرج الإدراك من البسيط للمعقد ومن الجزئى للكلى .

يستعين المعلم فى التدريس — ما أمكن — بضرب الأمثلة المفسرة للموضوع ، كما يرى أنه كلما كانت الأمثلة حسية — وخصوصا فى المراحل الأولى من التعليم — كلما كانت أفضل (١) . وهذا الإتجاه نحو تقريب العلوم إلى عقل المتعلم عن طريق التمثيل من الحياة ، وعن طريق استعمال الوسائل الموضحة الحسية إنما هو إتجاه أجمع الرأى على صحته وفائدته ، فليس هناك من شك فى أن استعمال أكبر عدد من الحواس فى التعليم — خصوصا فى المراحل الأولى منه يعتبر من أهم العوامل المساعدة على إسراع عملية التعلم وتكوين المدركات الكلية .

وينصح ابن خلدون بتجنب تقطيع الدروس بفترات طويلة تفصل بينها وبين بعضها ، إذ أن فى هذا التقطيع مدعاة لأن ينسى المتعلم مادرسه لطول الفترة بين الدرس والآخر . وقال إن مواصلة الدروس يربط بينها وبين بعضها ويساعد على أن تتم عملية التعلم فى وقت أقصر ، وبطريقة أصح ، وتأتى بنتيجة أفضل . يقول : « ينبغى ألا تطول على المتعلم فى الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها » (٢) . ومما لا شك فيه أن طول الفترة بين الدرس والآخر يعتبر عاملا معطلا لعملية التعلم ، وذلك لتدخل عامل النسيان الذى يتسبب من الانقطاع عن العلم فترة طويلة .

ومن النصائح التى يسديها ابن خلدون للمعلم أنه ينبغى — ما أمكن — أن يتجنب محاولة تعليم أكثر من « كتاب » واحد أو « علم واحد » فى وقت واحد ، ذلك لأن محاولة تعليم أكثر من علم واحد فى نفس الوقت

---

(١) : المقدمة ص ٣٩١

(٢) المقدمة : ص ٣٩٠

تتسبب فى أن يخلط الأمر على المتعلم ، فيرتبك عقله ، ولا تتكون لديه « ملكة » نقية ، غير مشوبة بالتباسات ناتجة من جراء تكوين « ملكات » أخرى فى نفس الوقت . أى بمعنى آخر يحدث تداخل بين « الملكات » بعضها وبعض فلا يتم تكوينها تكويناً سليما . يقول : « ولا ينبغى للمعلم أن يزيد ما تعلمه على فهم كتابه الذى أكب على التعلم منه بحسب طاقته ، وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان أو منتهيا ، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ، ويحصل أغراضه ويستولى على ملكة ينفذ بها فى غيره لأن المتعلم إذا حصل ملكة مافى علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقى وحصل له نشاط فى طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق » (١) أى أن التعلم الصحيح ينبغى أن يتم درجة درجة ، فيتعلم التلميذ علما ، أو يحذق مهارة ، ومتى استكمل هذا التعلم ، أو هذا الحذق أصبح مستعداً الآن يتعلم شيئا آخر ، وهكذا . فنظرية ابن خلدون هنا مبنية على أن التعلم يتبع تدرجا منطقياً ، فتبنى « ملكة » — على حد قوله — على « ملكة » أخرى ، بشرط أن تكون الأولى قد وطدت أقدامها وثبتت فى عقل المتعلم . على أن هـذا الرأى يتنافى إلى حد كبير مع الواقع إذ أنه ثبت أن الإنسان يمكنه أن يتعلم أكثر من شىء واحد فى نفس الوقت ، وأن تعلم أى نوع من المعرفة لا يعيق تعلم نوع آخر ، بل إنه — على العكس — قد يساعد تعلمه كثيراً .

وتكلم ابن خلدون عن صلة اللغة بالتفكير بطريقة أثبتت نضوج تفكيره وعمقه ، فقال إن اللغة هى عماد التفكير ، على ذلك فإن أهم ما فى التعليم النظرى من مشكلات هو معرفة المعانى والربط بينها وبين بعضها . وقال إن تعلم اللغة — الذى يجب أن يكون أساسا لتعلم سائر العلوم — يبـدأ بتعلم الكتابة والقراءة ، ثم ينتقل إلى مرحلة ثانية هى ربط الألفاظ بالمعانى ، وينتهى بالتجريد والربط بين المعانى المختلفة وبين بعضها . وعلى حد قوله فإن تعلم

---

(١) المقدمة: ص ٣٩٠

اللغة يحدث بمعرفة « الألفاظ ودلالتها على المعانى الذهنيــة تردها فى مشافهة الرسوم بالـكتاب .ومشافهة اللسان بالخطاب ، فلابد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر فى مطلوبك ، فأولا دلالة الـكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهى أخفها ، ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعانى المطلوبة ثم القوانين فى ترتيب المعانى للإستدلال فى قوالبها المعروفة فى صناعة المنطق ، ثم تلك المعانى مجردة فى الفكر أشراك يقتنص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله » (١) .

وهنا أيضا نجد ابن خلدون يبرهن ـ مرة أخرى ـ على سلامة تفـكيره وصفاء قريحته بكتابته على هذا النحو عن اللغة والفكر ، وعن أهمية التمكن من اللغة لفظا ومعنى فى سلامة التفـكير ، ودقة التعبير عن الأفكار .

ويقول ابن خلدون إن استعمال اللهجات المحلية للغة العربية أمر على جانب كبير من الأهمية فى التعليم ، وأن الإنسان ـ بطبيعته ـ يعبر عن آرائه بطريقة أفصح وأدق إذا استعمل لغته الدارجة ، التى يألفها ويعرفها ، والتى تمكنه من سهولة التعبير عن أفكاره ومشاعره . وقال إن المجتمعات الإسلامية فى العالم العربى تتكلم اللغة العربية بلهجات متباينة ذلك لأن الأمة الإسلامية ضمت عددا من الشعوب غير العربية من عجمية إلى قوقازية إلى مصرية إلى غير ذلك ، فلذلك تأثرت اللغة فى كل مجتمع حسب ظروفه ، وحسب من خالطه هذا المجتمع من شعوب أخرى غير عربية ، فأصبحت اللهجات العربية مختلفة من شعب إلى آخر . ولما كانت اللغة أداة الفـكر ، فلابد ـ إذن ـ من العناية بتعليم اللغات الدارجة بالإضافة إلى اللغة العربية الأصلية « لغة مضر » ، فتوضع لتلك اللغات الدارجه أصول وقواعد لتنظيمها نظرا لأهميتها ، ونظرا لأنها لغات

---

(١) المقدمة : ص ٣٩٥ — ٣٩٦

يجب تقدير قيمتها ، وأن اختلافها عن اللغة القديمة — فى النحو والتركيب — يجب ألا يعتبر عيبا فيها أو قصورا . يقول ابن خلدون « أعلم أن عرف التخاطب فى الأمصار بين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجيل ، بل هى لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربى الذى لعهدنا ، وهى عن لغة مضر أبعد ، فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له مافيها من التغاير الذى يعد عند صناعة أهل النحو لحنا ، وهى مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار فى اصطلاحاتهم ، فلغة أهل المشرق مباينة للغة أهل المغرب . . . وكل منهم (من شعوب المشرق والمغرب) متوصل بلغته إلى تأدية مقصودة ، والإبانة عما فى نفسه ، وهذا معنى اللسان واللغة ، وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم »(١). ويدل رأى ابن خلدون هذا فى ضرورة احترام اللهجات المحلية ، ومحاولة وضع أصول لها وقواعد ، واعتبارها أنسب لغة للفهم والتعبير ، ويدل على اتساع أفقه ، وعدم تعصبه للتقاليد ، وتمسكه بها صورة عمياء تغفل الأمر الواقع ، كما يبين مرة أخرى عقيدته فى ظاهرة التطور والتغيير الذى رأى فيها دستور الحياة . ومن المعروف أن أكثر المربين تقدما فى التفكير يؤكدون ضرورة استعمال اللهجات الدارجة فى التعليم حاليا.

وقد بين ابن خلدون أن حفظ العلوم واستظهارها بدقة لايعنى التعلم الصحيح ، إذ أن العناية بالاستظهار ، وبذل الجهد فى سبيل إتقانه يصرف المتعلم عن إجادة فهمه . ويضرب ابن خلدون المثل بنوع التعليم الذى كان سائدا فى « فاس » وفى سائر أقطار المغرب ، ذلك التعليم الذى لم يساعد المتعلمين على « حصول الملكة والحذق فى العلوم »(٢) ، لأن جل ما كان فيه هو الاهتمام بالحفظ ، والعناية بالاستظهار ، وإهمال النقاش « والمناظرة فى المسائل العلمية »(٣) لذلك فلم تكن لأغلب المتعلمين فى تلك البلاد القدرة على الاشتراك فى المناقشات

---

(١) المقدمة ص ٤١١ — ٤١٢
(٢) المقدمة ص ٣٠٢
(٣) المقدمة ص ٣٠٢

فى المجالس العلمية لانكبابهم على الحفظ ، ظنا منهم أنه المقصود من الملكة العلمية » . ويبين ابن خلدون أن المناقشات والمناظرات فى شتى المعارف تساعد على تفتيق الذهن ، وتوسيع الأفق ، وتوطد أقدام « الملكة » الخاصة التعلم . ولا شك فى أن هذا رأى صائب لأن التفكير الجماعى أكبر قيمة من التفكير المنفرد ، وذلك لأن القدرات العقلية للمتناقشين فى الموضوع تعمل متجمعة ، متعاونة فى البحث وفى حل المشكلات ، وهذا من شأنه أن يعم الفائدة على الجميع ، لما فيه من رياضة فكرية ، وتدريب على التعاون فى البحث العلمى وإننا لنجد طريقة المناظرة والمناقشة فى التدريس من الطرق المتبعة فى أحدث المدارس لما لها من فوائد تعليمية معروفة .

ولم يفت ابن خلدون أن يشرح طريقة تعليم الصناعات العملية التى رأى أن لا بد لها من معلم ليعلمها بطريقة صحيحة ، وقال إن « الملكة » التى تتكون من تعلم الصنعة أمر « عملى فكرى » أى أنها مشابهة « للملكة » التى تتكون من تعليم العلوم النظرية . وقال إن « ملكة » الصنائع يكون تكوينها أكمل لو حدث عن طريق المباشرة الفعلية للصنائع بعد فهمها ، ثم تكرار هذه المباشرة الفعلية حتى يتم تعلمها . فيقول إن « الملكة » (ويقصد ملكة الصنائع) صفة راسخة تحصل عند استعمال ذلك الفعل وتكراره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته ، وعلى نسبة الأصل تكون الملكة ، ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم ، فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر ، وعلى قدر جودة التعليم ، وملكة المتعلم يكون حذق المتعلم فى الصناعة وحصول ملكته »(١) وهكذا ينصح ابن خلدون بتعليم الصناعات عن طريق الممارسة الفعلية ، والتدريب على الممارسة بعد أن تتم عملية فهم الصنعة ، وهكذا يتم الحذق فيها ، وتتكون « ملكتها » ، وتجود الملكة

---

(١) المقدمة : ص ٢٨١

كلما كان المعلم ماهراً فى صنعة التعليم . أى أن ابن خلدون يشترط الممارسة الفعلية ، والتدريب على التعليم العملى الجيد ، ويبين أن التعليم بهذه الطريقة «أوعب وأتم» عما يكون عليه لو حدث عن طريق تعليم الصنعة بطريقة نظرية

ويرى ابن خلدون أيضا — كما رأى فى حالة تعليم العلوم النظرية — أن محاولة تعليم المتعلم أكثر من صنعة واحدة فى وقت واحد تعيق تكوين «الملكات»، ولا تمكن المتعلم من إجادة تعلم أى واحدة من الصنائع التى يحاول تعلمها ، كما يرى أن من أتقن صنعة وأجادها فلن يمكنه أن يتقن غيرها . يقول: «ومثال ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها رسخت فى نفسه فلا يجيد بعدها ملكة النجارة أو البناء ، إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صنعتها » (١) ، ويفسر قوله هذا بأن الملكات تشبه الصبغات ، فهى تصبغ « النفس » أى العقل الذى يكون — بفطرته — خاليا من أى لون ، فتضفى عليه لونا خاصا ، فإذا إصطبغ العقل بهذا اللون صعب تلوينه بلون آخر . يقول ابن خلدون إن الملكات صفات للنفس وألوان ، فلا تزدحم دفعة ، ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات ، وأحسن استعداداً لحصولها ، فاذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الإستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة ، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف » (٢) .

ويذكرنا قول ابن خلدون فى هذا الشأن ، وتشبيهه التعليم بتلوين «النفس» الفطرية الخالية بألوان معينة يذكرنا بما قاله « جون لوك » — الفيلسوف

---

(١) المقدمة : ص ٢٨٤

(٢) المقدمة : ص ٢٨٤

والمربى الإنجليزى الذى عاش فى القرن السابع عشر — من أن العقل بفطرته يشبه «صفحة بيضاء» ، وأن عملية التعلم ، واكتساب المعرفة تشبه عملية الكتابة وتخطيط السطور على هذه الصفحة . على أن ابن خلدون يرى أن ليس للعقل قدرة على استيعاب أكثر من مهارة واحدة فى وقت واحد وقد سبق أن جاء بنفس هذه النظرية عندما تكلم عن التعليم النظرى .

ويفرق ابن خلدون بين التعليم النظرى ، والتعليم العملى بشيئين وهما أن التعليم الأول — أى النظرى — أرقى من الثانى لأنه يحتاج إلى إستعمال الكتابة ، «والكتابة من بين الصنائع الأكثر فائدة» (١) للنمو العقلى ، كما أن التعليم النظرى أرقى من التعليم العملى لأن فيه انتقال «من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية فى الخيال ، ومن الكلمات اللفظية فى الخيال إلى المعانى التى فى النفس فتحصل ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات» (٢) ، أى أن التعليم النظرى يحتاج إلى تكوين مدركات كلية مجردة ، وإلى تطبيق هذه المدركات فى شتى الشؤون .

ومن الأمور التى يراها ابن خلدون معطلة لعملية التعلم كثرة المؤلفات فى العلم الواحد . يقول : «إنه مما أضر بالناس فى تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف ، وإختلاف الإصطلاحات فى التعليم ، وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك . . فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ، ومراعاة طرقها ولا يفى عمره بما كتب فى صناعة واحدة إذا تجرد لها ، فيقع القصور» (٣) وقول ابن خلدون فى هذا الشأن على جانب كبير من الصحة خصوصا إذا كان المتعلم فى المراحل الأولى من تعليمه ، فتسبب الآراء المتعارضة

---

(١) ، (٢) المقدمة : ص ٣٠١

(٣) المقدمة . ص ٣٩٣

فى المؤلفات المختلفة فى التباس الأمر عليه ، لكن تعدد المؤلفات فى نفس الموضوع يعتبر من العوامل التى تساعد الدارسين فى مراحل التعليم العليا على التفكير ، ومقارنة المعلومات فتنضج عقولهم ، ويتعلمون النقد ، وفرز الغث من الثمين فى العلوم والمعارف .

كذلك يرى أن كثرة الاختصارات فى العلوم ، ومحاولة تركيز معان كثيرة فى عبارات قليلة من الأمور التى تفسد التعليم . وقال إن كثيراً من علماء المسلمين حاولوا اختصار بعض العلوم كما فعل « ابن مالك » (١) باللغة العربية ظنا منهم أن هذا الاختصار يسهل على المتعلم الإلمام بهذه العلوم ، لكن الواقع أن كثرة الاختصارات تسبب فى أن يجد المتعلم صعوبة كبيرة فى استيعاب تلك المعانى المركزة العسيرة الفهم . يقول : « ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء فى العلوم يولعون بها ويدنون منها برنامجا مختصراً فى كل علم يشتمل على حصد مسائله وأدلتها باختصار فى الألفاظ ، وحشو القليل منها بالمعانى الكثيرة . . . . حتى صار ذلك مخلا بالبلاغة وعسراً على الفهم » (٢) . كما يقول فى مكان آخر إن هذه الإختصارات فيها إرباك للمبتدىء « بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها » (٣) كما أن فيها « شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الإختصار العويصة للفهم بتزاحم المعانى عليها ، وصعوبة إستخراج المسائل من بينها . . . . فالملكة الحاصلة من التعليم فى تلك المختصرات . . . . هى ملكة قاصرة عن الملكات التى تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة » (٤) وغنى عن البيان ما لهذا الرأى من قيمة فإن التمادى فى الإيجاز مضرّ بالمعنى خصوصا إذا كانت العلوم تحتاج إلى تفصيل.

---

(١) ابن مالك صاحب « ألفية ابن مالك »

(٢) المقدمة : ص ٣٩٣

(٣) ، (٢) المقدمة : ص ٣٩٣ — ٣٩٤

ولم يقل ابن خلدون كثيراً عن المعلمين ، ويعتبر أهم ماقاله عنهم أنه اعتبرهم محترفين لمهنة التعليم أو كما قال « صنعة التعليم » ، وأنه اعتبر تقاضيهم أجوراً لقاء القيام بمهمتهم أمراً طبيعياً لا يعابون عليه ، إذ أن احتراف الصنائع وجه من أوجه الارتزاق ويتفق رأيه هذا تماما مع نظرته البراجماسية الواقعية التي جعلته يقول إن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية . وقد ذكر أن القائمين بالتدريس لا يتقاضون أجوراً كبيرة مع أن أعمالهم من أجل الأعمال (١) . كذلك فقد رأى أن العلماء والمعلمين هم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة ، « والسبب فى ذلك أنهم معتادون النظر الفكرى والغوص على المعانى ، وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها فى الذهن »(٢) ولذلك فليس لديهم الوقت ولا القدرة على خوض غمار السياسة التى اعتبرها محفوفة بالمخاطر .

أما من ناحية إعدادهم « لصنعة التعليم » فلم يذكر إلا أن المعلم يجب أن يكون على علم بكيفية نمو العقل البشرى التدريجى ، حتى يمكنه أن يساير هذا النمو فى تعليمه للنشء . وقد نصح المعلمين بألا يستبدوا فى معاملة صغار المتعلمين ذلك لأن « أرهاف الجسد فى التعليم مضر بالمتعلم سيما فى أصاغر الولد »(٣) وقال إن معاملة الصغار بالشدة والعنف يتسبب فى كسلهم ، وحملهم على الكذب ، وبغضهم للعلم والتعليم ، وعلى العموم يتسبب فى أن يتخذوا من المكر والخداع درعا يقيهم من الشدة والتعسف ، يقول « ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس فى انبساطها وذهب بنشاطها ودعا إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث . . . وخوفا من انبساط الأيدى عليه بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة ، لذلك وصارت له هذه عادة وخلقا وفسدت معانى الإنسانية التى له . ويعود مرة أخرى

---

(١) المقدمة : ص ٢٧٦
(٢) المقدمة : ص ٤٠٠
(٣) المقدمة : ص ٣٩٩

فيشبه بين الفرد والمجتمع فى أن المجتمع الذى يقع تحت قهر واضطهاد فانه يفقد إنسانيته أيضاً ، ويضرب مثلا رائعاً بما حدث لليهود فيقول : « وهكذا وقع لكل أمة حصلت فى قبضة القهر ونال منها العسف واعتبره فى كل من يملك أمره عليه ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به تجد ذلك فيهم استقراء وانظره فى اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق للسوء حتى أنهم يوصفون فى كل أفق وعصر بالحرج ومعناه فى الاصطلاح المشهور بالمتخابث والكيد»[1]

فينبغى إذن أن يترفق المعلم بالمتعلم ويعامله برفق ورحمة مع الحزم فى المناسبات التى تحتمه . وهكذا نجد ابن خلدون يبرهن على درايته بأهمية الكيفية التى يعامل بها المعلم تلميذه ، وأثر هذه المعاملة على تكوينه الخلقى .

---

(١) المقدمة : ص ٣٦٩

الباب الخامس

تعـــليق

الآن وقد استعرضنا ما قاله ابن خلدون عن التربية والتعليم يتضح أن ابن خلدون ، ولو أنه لم يتوسع فى البحث فى التربية وشؤونها ، ولم يعالجها إلا عرضا معتبرا أنها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية المتعددة ، إلا أن بحثه الموجز فى التربية بين كفاية مدهشة فى فهمه للشؤون التربوية عامة ، ومايتعلق بها من مشكلات . ولاشك فى أن ابن خلدون أفاد كثيرا من قراءته لمؤلفات اليونان والرومان فى هـذه النواحى ، فنجده ينصح بالعلم عن طريق الخبرة المباشرة ـ وخصوصا فى الصنائع ـ وهذا الرأى مماثل لرأى كل من أفلاطون وأرسطو فى هذا الصدد . وقد استعان ابن خلدون ـ كما ذكرت ـ بالفلسفات القديمة فى تكوين آرائه عن « النفس » ـــ أى العقل ـــ لكنه عاد فأنحى باللوم على الفلسفة وعلى الفلاسفة . ولا بد أن ابن خلدون أفاد من المؤلفات اليونانية القديمة من ناحية الإلمام بشتى العلوم التى كتبوا عنها كالفلك والهندسة وغيرها .

كذلك فقد أفاد ابن خلدون من حياته السياسية ، ومن رحلاته العديدة ، ومما جناه من هذه الحياة ، وتلك الأسفار من معلومات وآراء نتيجة لاختلاطه بالشعوب المختلفة ، واحتكاكه بالحضارات المتفاوتة ؛ ولا عجب إذا وجدنا أن ابن خلدون ينصح بالرحيل فى طلب العلم إذا لم يتيسر الحصول عليه فى الوطن[1] .

وأهم مايميز آراء ابن خلدون فى التربية والتعليم إعتداله فى التفكير ، فلم

(١) المقدمة : ص ٣٩٩

يتمادى فى الاتجاه بالتربية نحو الدين مع إهمال القيم الدنيوية ، بل إنه كان متزنا فى تفكيره فى هذه الناحية ، فقد رأى أن تعليم العلوم الدينية واجب وضرورى لأنها تساعد الفرد على أن يحى حياة « معصومة » من الأخطاء ، ولأن الدين منبع الشرائع والقوانين ، لكنه رأى أيضا أن للعلوم الأخرى أهمية لاتقل عن أهمية العلوم الدينية ، وأنها لازمة للفرد لكى يحى حياة طيبة ، ولكى ينهض بمجتمعه فيزداد المجتمع رقيا وحضارة ؛ وهكذا نجد ابن خلدون يتجه اتجاها واقعيا معتدلا متفقا وفلسفة الواقعية فى الحياة ، حتى لقد ذكر ابن خلدون أن التمادى فى التدين لدرجة التصوف والتنسك ، والانقطاع عن الدنيويات ، يفقد صاحبه جزءا كبيرا من رجاحة العقل ، والحزم فى الأمور(١) .

أما اتجاهه نحو الاعتراف بضرورة اعتبار « تعليم العلم » حرفة أو صنعة تستغل لكسب الرزق ، فإنه يدل أيضا على واقعية ابن خلدون ، تلك التى لابد وأن يكون قد اكتسبها من حياته السياسية التى كونت فلسفته العملية المادية ، وأبعدته عن الخيال والمثالية ؛ وهكذا نجد ابن خلدون يخالف — مرة أخرى — الآراء التقليدية القائلة بأن احتراف التعليم ليس من شيم الكرام وأن المعلم المثالى هو الذى لايتقاضى أجرا لقاء قيامه بتعليم العلم .

ولقد كانت عقيدة ابن خلدون فى ظاهرة التطور والتغيير عقيدة راسخة وكان إيمانه بها وطيد ؛ ولقد أثرت عقيدته هذه فى كل وجه من أوجه كتابته وصبغت كل ناحية من نواحى تفكيره ، فنراه يتكلم عن تطور نمو الفرد ، وتطور الجنس البشرى ، وتطور المجتمعات ، وحضارتها ، ونظم الحكم فيها ، وينتقل أثر هذه العقيدة إلى تفكيره فى نواحى التربية ، فنجده يتكلم عن تطور

---

(١) المقدمة : ص ٣٣٣

اللغات وتكوين اللهجات المحلية ، وتطور نمو الفكر وما إلى ذلك . فكان ابن خلدون ـ لهذا ـ من أوائل الكتاب القدامى ـ من المسلمين وغيرهم ـ الذين أظهروا سعة فى التفكير ، وبعداً عن التعصب للتقاليد ، بل ومحاولة الوقوف فى وجه أى تغيير أو تبديل فى الشؤون المألوفة والمعرفة فى نواحى الحياة المختلفة ، وإنى أظن أن هذه المرونة فى تفكيره ، وفى تقديره للأمور كانت سببا من الأسباب التى شجعته على الانتقال من عمل لآخر ، وعلى تغيير خطة سيره فى الحياة ، وعلى الأسفار التى قام بها بين بلدان العالم العربى .

وإنه مما يدعو إلى الأسف أن مؤلفات ابن خلدون لم تلق من علماء الغرب التقدير الكافى ، ولم يذكر فضلها على تطور العلوم ، وقد يكون ذلك نتيجة لعدم دراستها دراسة وافية تبين قيمتها العلمية التى لا تقل — بأى حال — عن قيمة مؤلف العالم « داروين » المعروف « بنظرية النشوء والارتقاء » الذى هز العالم العلمى ، بأسره ، وأحدث انقلابات عنيفة . فى النظريات العلمية السائدة وقت ظهوره . وإن من يقرأ « مقدمة ابن خلدون » سوف يشعر بأن هذا المؤلف يمكن أن يوضع فى نفس المستوى الذى يوضع فيه مؤلف « داروين » ، وأن فكرة التطور والنشوء ليست بالجدة التى كنا نتصورها قبل قراءة مؤلف ابن خلدون .

ولقد فطن ابن خلدون إلى أمر هام جدا ، ويعتبر من أحدث النظريات العلمية ألا وهو أن التعاون هو أساس الحياة الاجتماعية[1] ، وليس التنافس لأن فى التعاون بقاء الأفراد ، ورخاء المجتمعات ، أما فكرة داروين بأن البقاء للأصلح — سواء أكان ذلك فيما يخص الأفراد أو يخص المجتمعات — فإنها فكرة منطوية على القسوة ، ولقد أثبتت الحقائق العلمية حديثا أن دستور

---

(١) المقدمة : ص ٣٠١

الحياة إنما هو التعاون لا التنافس(١) ، وعلى ذلك فيكون ابن خلدون قد فطن إلى هذه الحقيقة من زمن بعيد .

ولا شك فى أن ابن خلدون قد أفاد كثيراً من زيارته لمصر وبقائه فيها ، وباشتغاله بالتدريس فى الجامع الأزهر ، ويظهر أثر هذه الإفادة فى إتساع معارفه فى العلوم المختلفة ، التى لابد وأن يكون قد ألم ببعضها ، من الكتب والمؤلفات التى كانت موجودة بمصر ، ومن مؤلفات علماء المصريين مثل العمرى ، والقلقشندى وغيرهما . كذلك فإن لابن خلدون آراء فى التربية تظهر وكأنها موحى بها من النظم والأحوال التى شاهدها فى مصر ، فمثلا يتكلم عن تشجيع طلاب العلم بالهبات والمكافآت فيقول : « وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه ، وانقطاع سند العلم والتعليم . . . وما أدرى ما فعل الله بالمشرق والظن به نفاق العلم فيه واتصال التعليم فى العلوم ، وفى سائر الصنائع الضرورية والكمالية لكثرة عمرانه والحضارة ، ووجود الإعانة لطالب العلم بالجراية من الأوقاف التى اتسعت بها أرزاقهم»(٢). ويذكر ابن خلدون فى أكثر من مناسبة تقدم العلوم فى المشرق ، وعلى الأخص فى مصر التى وصفها بأنها مهداً للحضارة لرسوخ المدنية فيها من قديم الأزل ، ولاهتمام أهلها بالعلم والتعليم ، فيقول إن هذه البلدان بقيت حاملة لشعلة العلم بعد أن خبت فى بلاد المشرق الأقصى ، وأن العلوم فى مصر مثلا « موفورة وعمرانها متصلا ، وسند التعليم بها قائماً » (٣) وأن التقدم فى العلوم وسائر الصنائع فيها بالغاً « حتى ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق فى طلب العلم أن عقولهم (أى عقول أهل المشرق) أكمل من عقول أهل

---

(١) انظر كتاب „On Being Homan„ , by Ashley Montagu Henry Schumann, New York 1951.

(٢) المقدمة : ص ٣٠٦

(٣) المقدمة : ص ٣٠٣

المغرب ، وأشد نباهة ، وأعظم كيساً لفطرتهم الأولى ، وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب »[١] .

ويتضح من كتابة ابن خلدون فى شؤون التربية عموماً أنه لم يكتب آراءه إلا بخطوط عريضة ، فلم يدخل فى تفاصيل دقيقة فى أى ناحية من النواحى ، بل إن آراءه جاءت على هيئة إتجاهات عامة أشار باتباعها ، ومبادىء أساسية رأى التمسك بها ، وقد استعان فى كل ما كتب عن التربية بضرب أمثلة مما شاهده فى بلاد العالم التى عرفها وعاش فيها ، وهكذا يبين أن آراءه لم تكن آراء نظرية ، مبنية على الخيال بل جاءت نتيجة لمشاهداته وتجاربه .

وآراء ابن خلدون فى التربية — على وجه العموم — سليمة ومعقولة ، ومبنية فى غالبيتها على مشاهداته الخاصة التى لابد وأن تكون قد كونت لديه نظريات معينة بنى عليها آراءه فى التربية . فكونه يربط التربية بركب الحضارة دلالة على شدة ملاحظته وعمق تفكيره ، فإن التربية وليدة المجتمع بكل مافيه من قيم ، ومن عوامل تؤثر فى نواحى الحياة فيه ، وكلما تقدمت الحضارة ارتقت العلوم وأساليب التعليم .

أما بنائه عملية التعليم على الطريقة التى يعمل العقل بمقتضاها أثناء التعلم ، فإنها تدل على أن ابن خلدون فطن إلى أهمية الدراسات النفسية للقائمين على التعليم ، وذلك لأن عملهم — لكى يكون سليماً — يقتضى معرفتهم لهذه الأمور فلا يقعوا فى أخطاء قد تتسبب فى الإضرار بالمتعلمين، خصوصاً إذا لم يحرص المعلم على مراعاة المستوى العقلى لتلميذه عند التدريس، أو إذا استعمل القسوة والغلظة فى معاملته .

---

(١) المقدمة ص : ٣٠٣

وعندما يتكلم ابن خلدون عن العلوم والصنائع على أنها كلها وليدة الحضارة ، وأنها تقع فى مستوى واحد ويكمل بعضها البعض ، وأن للعلوم قيم خاصة كما أن للصنائع قيم لا تقل عنها فى الفائدة للمجتمع نجده وكأنه من أحدث المتكلمين عن التربية فى عصرنا الحالى .

ومن النقاط الواجب الإشارة إليها ، والمبينة لنضوج تفكير ابن خلدون فى شؤون التربية رأيه فى أن الفرص من التعلم ليس الحفظ ولا الاستظهار ، بل الفهم والبحث والقدرة على المناقشة التى تمكن الفرد من تمييز الغث من الثمين فى العلوم والمعارف . كذلك فإن رأيه يقضى بعدم تعليم القرآن للحديثى السن لعدم قدرتهم على فهمه وتقديره ، ولأنه لا يضمن إتمام التربية الدينية على الوجه الأكمل .

أما رأيه فى أهمية اللغة للتعليم لأن اللغة أداة الفكر ، وبدونها وبدون إتقانها تصعب عملية الاتصال الفكرى بين المعلم والمتعلم ، فإنه رأى قيم ، ويعتبر من أهم وجهات نظر المربين الحديثين .

●


Bibliotheca Alexandrina
04429672